







عصر الإمام السجاد عليه السلام

سياسيا واجتماعيا

الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي

سرشناسه: یوسفی غروی، محمدهادی، ۱۳۲۷-

عنوان و نام پدیدآورنده: عصر الامام السجاد علیه السلام سياسياً و اجتماعياً / مؤلف محمدهادی اليوسفی الغروی
مشخصات نشر: قم: مجمع جهانی اهل بیت عليهم السلام، ۱۴۳۶ق. = ۱۳۹۴.

مشخصات ظاهري: ۳۴۴ص.

شابک: ۹۷۸-۹۶۴-۵۲۹-۸۳۹-۳

وضعیت فهرست نویسی: فیبا

یادداشت: این اثر به مناسبت برگزاری همایش بین المللی امام سجاد علیه السلام منتشر شده است.

موضوع: علی بن حسین (ع)، امام چهارم، ۳۸ - ۹۴ق. - سرگذشت نامه

شناسه افزوده: همایش بین المللی امام سجاد علیه السلام (۱۳۹۴، تهران)

شناسه افزوده: مجمع جهانی اهل بیت عليهم السلام

رده بندی کنگره: ۱۳۹۴ ع ۹ / ۴۳ BP

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۲



اسم الكتاب : عصر السَّجَّاد عليه السلام سياسياً واجتماعياً

لمؤلف : الشيخ محمد هادي اليوسفی الغروي

الموضوع: التاريخ والحديث

التصحيح والاخراج الفني: قاسم البغدادي

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

الطبعة: الأولى

المطبعة: مجاب

الكمية: ۱۰۰۰

تاريخ النشر: ۱۴۳۶ هـ. ش

ردمك: ۹۸۷-۹۶۴-۵۲۹-۸۳۹-۳ ISBN

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

العنوان: قم، شارع جمهوري اسلامي، رأس الفرع ۶، الهاتف: ۳۲۱۳۱۲۲۱ - ۰۲۵

طهران، شارع کشاورز، مقابل منتزه لاله، رقم ۲۲۸، تلفن: ۸۸۹۷۰۱۷۱ - ۰۲۱

www.abwacd.com www.ahl-ul-bayt.org

www.abna.ir info@ahl-ul-bayt.org

أَهْلًا لِلْبَيْتِ
فِي الْقُرْآنِ السَّكِينِ

إِنَّمَا يَرْثُ اللَّهَ
لِيُزْهِبَ عَنْكُمْ الْجِبَالَ
وَيُطَهِّرَ كُمُ قُطُوبًا

أَهْلُ الْبَيْتِ فِي السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ

أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَثَلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ
كِتَابُ اللَّهِ جِبَالٌ مَدِيدَةٌ
مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ
وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي وَإِنَّهُمْ هُمَا
لَنَنْفِرَ قَا حَتَّى يَكُونَ عَلَى الْحَوْضِ

مسند أحمد : ٦٤ : ٦٨ (ما أشد عن أبي سعيد)

سنن الترمذي : ٥ : ٢٢٩ / ج ٨٢٧٩

المستدرک للحاكم : ٥ : ١٠٩ و ١٤٨

فضائل الصحابة للنسائي : ٦٥ (باب فضائل علي عليه السلام)

المعجم الأوسط لنظيراني : ٣ : ٣٧٤

مقدمة المجمع

إنّ مدرسة أهل البيت عليه السلام التي تجسّد الإسلام المحمّدي الأصيل، وتستند إلى مصدر الوحي، ذات معارف كبرى تتصف بأعلى درجات الإتقان، والإستدلال، والمنطق الجزل، وتتطابق مع الفطرة الإنسانية السليمة. «فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا». إنّ هذه المدرسة الثرة والوضاءة، قد اعتنت وتسامت وانتشرت بفضل الرعاية الربّانية ويارشادات الأئمة الأطهار عليه السلام، وبجهاد وجهود الآلاف من العلماء والفقهاء.

لقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني قدس سرّه إلى إقامة نظام الجمهورية الإسلامية وفقاً لمبدأ ولاية الفقيه، ما أدّى إلى استقطاب أنظار الكثير من أحرار العالم إلى هذه المدرسة وخاصة المسلمين منهم.

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام وليد هذا التغير المبارك في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وجاء انطلاقاً من فكرة ابتكرها المرشد الأعلى للثورة الإسلامية سماحة آية الله العظمى الخامنئي (مدّ ظله الوارف) في عام ١٩٩٠م. واضطلع حتى الآن بتقديم خدمات جليلة في مجال الدعوة وترويج معارف القرآن وأهل البيت عليه السلام والذود عن حياض القرآن الكريم وأتباع أهل البيت عليه السلام.

إنّ المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام وفي سياق نهوضها برسالتها من أجل الإرتقاء بمستوى الوعي والمعرفة لدى أتباع أهل البيت عليه السلام وترصين دعائم البيت الشيعي، قامت بتأليف الكتب وإصدار المجالات بعدة لغات حيّة، وبكافة الوسائل الثقافية المعاصرة المتاحة، بمختلف المواضيع على مستوى المخاطبين وفي شتى المجالات والميادين، قامت بعقد المؤتمر الدولي للإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام.

وهنا أرى لزماً عليّ أن أقدم شكري للجهود المتواصلة التي بذلها الأمين العام

للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام سماحة الشيخ محمد حسن الاختري (دام عزّه)،
وسماحة آية الله الشيخ قربان علي دري نجف آبادي، نائب رئيس المجلس الأعلى
للمجمع ورئيس اللجنة العلمية لمؤتمر العالمي للإمام السجاد عليه السلام. وسماحة الشيخ
محمد سالار معاون الشؤون الدولية، والمهندس مجد حكمت معاون الشؤون
التنفيذية، وأعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر أصحاب السماحة: الشيخ محمد هادي
اليوسفي الغروي، السيّد محمّدرضا الحسيني الجلاّلي، السيّد محسن الحسيني الأميني،
السيّد منذر الحكيم، الشيخ حميد رضا المطهّري، الشيخ رمضان المحمّدي، السيّد
محمّدرضا آل أيوب، والشيخ عبّاس الجعفري مدير لجنة الدراسات الاستراتيجية
وسكرتير اللجنة العلمية لإقامة المؤتمر العالمي للإمام السجاد عليه السلام.

وكذلك نشكرُ الكتاب والمترجمين والمقيمين: سماحة آية الله الشيخ
محمّدمهدي الآصفي، الشيخ قيس بهجت العطّار، السيّد راضي الحسيني، السيّد
عبد الأمير المؤمن، السيّد أمين السعيد، السيّد محمّد المروّج، عبد الكريم الكرمانى،
محمّد علي معينيان، محمّد جواد الخرسندي، حسين الصمدي، حسين الصالحى، قاسم
البغدادي، جواد الجعفري، وبرويز الكاظمي، وجميع الإخوة الذين عاضدونا بشكل أو
بآخر على صياغة واعداد وطباعة هذه المقالات.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لخدمة الإسلام والمسلمين بنشر فكر وتراث أهل

البيت عليه السلام.

نجف لك زاوي

معاون الشؤون الثقافية

تمهيد

الكلام عن تاريخ عصر الإمام السجّاد عليّ بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام، وعهد إمامته يبدأ من بعد مقتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام، وآثرتُ هنا أن أبدأ من خبر إدخاله بالكوفة على واليها يومئذٍ من قبل يزيد بن معاوية: عبيد الله بن زياد.

ونمهّد قبل ذلك بالحديث عن والدته الإمام عليه السلام ومولده فنقول:

والدة الإمام السجّاد عليه السلام:

في عام ٣١ هـ بلغ يزدجرد الثالث الساساني امبراطور إيران يومئذٍ بأصحابه في هزيمته وهروبه من أمام المسلمين الفاتحين، إلى مدينة مرو، وبها عامله ماهويه، وأخذ يتشدّد عليه لإحضار أمواله. وكان خاقان الأتراك المجاورين قد صاهر ماهويه، فكتب ماهويه إليه وأعلمه بالأمر ورغبه في الزحف إليه بجنوده لفتح بلاده، ففعل خاقان الأتراك ذلك، وفتح ماهويه له أبواب بلاده.

فقتل أصحاب يزدجرد وبنوه، وهرب هو على رجله ليلاً حتى لجأ إلى بيت رحيّ على الماء واستضاف الطحّان، فلمّا عرفه الطحّان قتله وسلبه وألقاه في الماء^١.

روى الشيخ الصدوق بسنده عن الرضا عليه السلام قال: لمّا فتح عبدالله بن عامر خراسان أيام عثمان، أصاب ابنتين ليزدجرد بن شهریار آخر ملوك الفرس، فبعث

١. الأخبار الطوال للدينوري: ١٤١، فتوح البلدان للبلاذري: ٣٢٢.

بهما إلى عثمان، فوهبهما للحسين عليه السلام^١ وكلتاها حملتا منهما عليهما السلام ، وفي نفاسهما بأولادهما ماتت صاحبة الحسن عليه السلام قبل ولادتها بولدها، ونفست صاحبة الحسين بعلي بن الحسين عليهما السلام ثم ماتت، ودفنتا في بقيع الغرقد. هذا هو ما دلّت عليه رواية الشيخ الصدوق عن الرضا عليه السلام، وهو مختاري الراجح من بين مختلف الأخبار في الموضوع بمرجّحات عديدة، منها ما يلي في أخبار مولده عليه السلام.

مولد الإمام السجّاد عليه السلام

في آخر شهر ربيع الآخر عام ٣٦ هـ خرج علي عليه السلام بأنصاره من المهاجرين والأنصار ومعه ابنه الحسنان عليهما السلام إلى البصرة لحرب الجمل^٢. وفي عاشر جمادى الأولى زحف علي عليه السلام إلى أصحاب الجمل بالبصرة^٣ واستظهرت أنها من أخبار الحرب أنها استمرت ثلاثة أيام^٤ أي إلى أواخر نهار الثاني عشر من جمادى الأولى، وعليه ففي اليوم الثالث عشر منها دخل علي عليه السلام البصرة فاتحاً، وبقي بها إلى أواخر جمادى الأولى إذ تركها لأوائل شهر رجب إلى الكوفة حتّى دخلها في الثاني عشر منه^٥.

فيظهر أنّه في أواخر أيامهم بالبصرة أي في أواخر جمادى الأولى بلغهم خبر مولد علي بن الحسين عليهما السلام في منتصف شهر جمادى الأولى، أي في أوائل دخولهم البصرة فاتحين. وأوّل قلم قدّم لنا هذا التاريخ هو قلم الشيخ المفيد بعد

١ . عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢٨ ب ٣٥ ح ٦.

٢ . تاريخ الطبري ٤: ٤٧٨ عن النميري البصري عن المدائني البصري.

٣ . الجمل للمفيد: ٣٣٦.

٤ . موسوعة التاريخ الإسلامي ٤: ٦٦٥ - ٦٦٧.

٥ . وقعة صفين ٣: ٢، مروج الذهب ٢: ٢٧٢، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٤: ٦٥٤.

إرشاده ومسارّه في «حدائق الرياض»^١ وهو مختار المحدث القميّ في «الأنوار البهية»^٢ وكان عليّ والحسنان عليهما السلام قد تركوا أهلهم بالمدينة وخرجوا إلى البصرة، فكان ميلاد السجّاد عليه السلام في غيابهم، ولذا لا نجد خبراً عن من أجرى عليه سنن المولود، ثمّ لمّا رحلوا إلى الكوفة حملوهنّ من المدينة إلى الكوفة، كلّ ذلك كان عام ٣٦ هـ لا ٣٨ هـ^٣.

وكما أنّ عليّاً عليه السلام تأدّب أمام رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يسبقه بتسمية ابنه الحسين عليه السلام حتّى سمّاهما جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله بوحى ربّه، كما رواه الشيخ الصدوق بسنده عن الرضا عليه السلام^٤، كذلك هنا أثر الحسين أباه عليّاً في تسمية ابنه فسمّاه باسمه عليّاً عليه السلام.

وكان أبو الأسود ظالم بن عمرو الكناني البصري قد سمع بها رجلاً من أهلها أمّه من العجم يدعى لأمّه الطرمّاح ابن ميادة، سمعه يُعاب بأمّه فيقول شعراً مفتخراً بها:

أنا ابن أبي سلمى وجدّي ظالم وأمّي حصان أخلصتها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمام^٥
ولهذا فهو بيت شعر فرد لا تمام لها.

زواج السجّاد بابنة عمّه الحسن عليه السلام

في عام ٥٠ هـ لمّا عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد دسّ إلى زوجته - زوجة الإمام الحسن عليه السلام - جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي من حملها على

١. كما عنه في الإقبال للسيد ابن طاووس ٣: ١٥٦.

٢. الأنوار البهية: ١٠٧.

٣. كما في أصول الكافي ١: ٤٦٦ غفلة من الكليني وليست رواية، وتبعه من بعده.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٥، وفي أماليه: ١١٦، أمالي الطوسي: ٣٦٧ ح ٧٨١.

٥. أصول الكافي ١: ٤٦٧.

سمّه عليه السلام بمائة ألف درهم! فسقته جعدة السمّ، فمرض أربعين يوماً حتى مضى لسبيله في صفر سنة ٥٠ هـ^١ فلما حضرته الوفاة استدعى أخاه الحسين عليه السلام، ثمّ وصّى إليه بأهله وولده وتركاته، وما وصّى به إليه أبوه أمير المؤمنين عليه السلام حين استخلفه وأهله لمقامه^٢.

وكان السجّاد عليه السلام يومئذ في الخامسة عشرة من عمره، فيبدو أنّه بعد خمس سنين؛ أي في عام ٥٥ هـ، لمّا بلغ السجّاد عليه السلام عشرين عاماً، وكان الحسين وصيّ أخيه الحسن على أهله وولده، ورأى من بناته فاطمة^٣ أنها - كما عن الصادق عليه السلام - كانت صديقة لم يُدرِك في آل الحسن امرأة مثلها^٤، اختارها فزوَّجها لابنه السجّاد عليه السلام.

وفي مستهلّ شهر رجب الحرام عام ٥٧ هـ رُزق منها ابنه الباقر عليه السلام^٥، وكما جرت السّنة من قبل في تسمية السجّاد وأبيه الحسين عليه السلام ترك السجّاد تسمية ابنه لأبيه الحسين عليه السلام فسمّاه باسم جدّه محمد صلى الله عليه وآله، ولم يكنه بكنية جدّه أبي القاسم؛ لنهيهِ عن الجمع بين اسمه وكنيته، بل كنّاه بأبي جعفر^٦، ولعلّه حباً وإحياءً لذكر عمّه الشهيد جعفر الطيّار ذي الجناحين. فكان عمر الباقر عليه السلام يوم الطف ثلاث سنين.

وهنا ننتقل إلى ما تلقّيناه من أخبار تاريخية عن أقدم المصادر وأقومها، من أخبار السجّاد عليه السلام لأوائل عصر إمامته بعد مقتل أبيه الحسين عليه السلام، مما يدخل تحت عنوان: التاريخ السياسي والاجتماعي لعصر الإمام السجّاد عليه السلام، وهي أخبار أسره وإدخاله على والي الكوفة ليزيد بن معاوية: عبيد الله بن زياد.

١. الإرشاد ٢: ١٥.

٢. المصدر السابق ٢: ١٧.

٣. كذا في تاريخ أهل البيت عليه السلام: ١٢٢ وكنيتها أمّ عبدالله كما في أصول الكافي ١: ٤٦٩.

٤. أصول الكافي ١: ٤٦٩ بطريقين.

٥. مسار الشيعة: ٥٦ عن جابر الجعفي.

٦. تاريخ أهل البيت: ١٣٨.

الإمام السجاد عليه السلام في مجلس ابن زياد

ثم أدخلوا عيال الحسين عليه السلام، أخواته ونساءه وصبياناه على ابن زياد، وكانت زينب ابنة فاطمة تنكرت بأن لبست أردل ثيابها، وكان لها معها إماء حفن بها حولها فدخلت وجلست بينهن وهن قمن حولها، ورآها كذلك ابن زياد فقال:

من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه ولا إماؤها حتى قال ذلك ثلاثاً، فقال بعض إماءها:

هذه زينب بنت فاطمة!

فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم! وأكذب أحدوشتكم! فأجابته: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيراً^١، لا كما تقول أنت! إنما يفتضح الفاسق! ويكذب الفاجر!

فسألها: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟!

فأجابته: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم^٢ وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده^٣!

فغضب ابن زياد واستشاط غضباً وقال لها: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك!

فبكت، ثم قالت: لعمرى لقد قتلت كهلي! وأبرت أهلي! وقطعت فرعي (أولادي) واجتشت أصلي! فإن يشفك هذا فقد اشتفيت!

١. إشارة إلى الآية ٣٣ من الأحزاب.

٢. اقتباس من الآية ١٥٤ من آل عمران.

٣. وليس في المصادر الأولى المعتبرة جملة: ما رأيت إلا جميلاً، ولا جملة: فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يابن مرجانة!

فقال ابن زياد: هذه سَجّاعة^١! ولعمري قد كان أبوها شاعراً سَجّاعاً!
فأجابته: ما للمرأة والسَجّاعة! إنّ لي عن السَجّاعة لشغلاً، ولكنني نفثي
بما أقول. ثمّ نظر ابن زياد إلى عليّ بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا عليّ
بن الحسين!

فقال: أولم يقتل الله! عليّ بن الحسين! فسكت، فقال: ما لك لا تتكلّم؟! قال:
قد كان لي أخ يقال له أيضاً: عليّ، فقتله الناس^٢! قال: إنّ الله قتله! فسكت الإمام
السجّاد عليه السلام، فقال له: ما لك لا تتكلّم؟! فتلا عليه آيتين من القرآن: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى
الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^٣، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٤.

فقال له ابن زياد: أنت والله منهم^٥! وبك جرأة لردّ جوابي! وفيك بقيّة للردّ
عليّ^٦! ثمّ التفت إلى المرّي بن معاذ الأحمر من جلاوزته وقال له: ويحك اقتله!
فتعلّقت به عمّته زينب وقالت له:

يا ابن زياد! حسبك منّا! أما رويت من دماننا! وهل أبقيت منّا أحداً! واعتنقته
وقالت لابن زياد: أسألك بالله - إن كنت مؤمناً - إن قتله لمّا قتلني معه!
وناداه عليّ بن الحسين عليه السلام: إن كانت بينك وبينهنّ قرابة (من قريش)
فابعث معهن رجلاً تقيّاً يصحبهنّ بصحبة الإسلام!

١. هذا في الإرشاد ٢: ١١٦، وفي الطبري ٥: ٤٥٧: شجاعة! وهي لا تناسب ذيل الخبر: كان أبوها شاعراً سَجّاعاً!

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٧ عن أبي مخنف. وروى في ذيل المذيّل: ٦٣٠: عنه عليه السلام قال: قلت: كان لي أخ أكبر منّي.

٣. الزمر: ٤٢، واكتفى بذكرها الإرشاد.

٤. آل عمران: ١٤٥، وليست في الإرشاد.

٥. الطبري ٥: ٤٥٨.

٦. الإرشاد ٢: ١١٦.

فنظر إليهما ثم قال: عجباً للرحم! واللّه لو أدّت لو أنّي قتلتها معي! دعوا الغلام! فإنّي أراه لما به^١.

ثمّ أمر ابن زياد أن ينصب رأس الحسين عليه السلام على رمح ويُدّار به في الكوفة^٢! في سككها كلّها وقبائلها.

روى عن زيد بن أرقم قال: مرّ به عليّ وهو على رمح وأنا في غرفة (فوقانية)، فلمّا حاذاني سمعته يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^٣ فقف شعري واللّه وناديت: رأسك واللّه - يا ابن رسول الله - أعجب وأعجب!

موقف ابن عفيف

وأمر ابن زياد فنادوا: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الأعظم، فخرج ابن زياد وصعد المنبر وقال:

الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب: الحسين بن عليّ و«شيعة»!

وكان عبد الله بن عفيف الأزدي الغامدي من «شيعة عليّ كرم الله وجهه»^٤، وكان أعمى لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلّي فيه إلى الليل، فلمّا سمع هذه المقالة من ابن زياد وثب إليه وناداه: إنّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه يابن مرجانة! أتقتلون أبناء النبيّ وتكلمون بكلام الصديقين!

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٧ عن أبي مخنف.

٢. الإرشاد ٢: ١١٦-١١٧ أي مريضاً مرض الموت.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٩ عن أبي مخنف.

٤. الكهف: ٩.

٥. الإرشاد ٢: ١١٧، وليس في الطبري.

٦. كانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع عليّ عليه السلام ومعه في صفين ذهبت عينه الأخرى، الطبري ٥: ٤٥٨.

فنادى ابن زياد بجلاوزته: عليّ به! فوثبوا عليه حتّى أخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرور! فوثب إليه فتية منهم فانتزعوه من أيدي الجلاوزة وذهبوا به إلى أهله. فأرسل إليه ابن زياد من أتاه به (ليلاً) فقتله وأمر بصلبه في السبخة! فصلب هناك رحمه الله^١.

الرؤوس بين يدي يزيد

لم يمنع ابن زياد وثبة ابن عفيف الأزديّ عليه من أن يدعوأبا بردة بن عوف وطارق بن أبي ظبيان الأزديّين ليكونا مع زحر بن قيس الجعفي الكندي، ليسرّحهم برأس الإمام عليه السلام ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية^٢.
روى السبط عن الزهري قال: لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظره على جبل جيرون بدمشق فأنشد:

لما بدت تلك الحمولُ وأشرقتُ تلك الشموسُ على ربى جيرون
نعق الغراب فقلتُ: نح أولاً تنح فلقد قضيت من النبىّ ديوني^٣

فروى الكلبي عن الغاز بن ربيعة الحميري الجرشيّ أنّه كان عند يزيد بدمشق إذ دخل عليه زحر بن قيس الجعفي الكندي، فقال له يزيد: ويلك ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال له: أبشر يا أمير المؤمنين! بفتح الله ونصره! ورد علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من «شيعة»، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد، أوالقتال! فاختاروا القتال على الاستسلام! فعدونا عليهم مع شروق الشمس « فأحطنا بهم من

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٨ - ٤٥٩ عن أبي مخنف الأزدي، وفي الإرشاد ٢: ١١٧ بلا تفصيل.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٥٩ عن أبي مخنف، والإرشاد ٢: ١١٨.

٣. تذكرة الخواص ٢: ١٩٦ بتحقيق تقي زاده.

كلّ ناحية، حتّى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم حتّى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجرّدة! وثيابهم مرمّلة! وخدودهم معفّرة! تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الريح، زوارهم العقبان والرّخم بقيّ سبب^١.
ووضع الرأس بين يدي يزيد في طست، فجعل ينكت على ثنياه بقضيبه!
وتمثّل بقول عبد الله بن الزّبّعي:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جَزَع الخُزْجِ مِنْ وَقَعِ الأَسْلِ
قد قتلنا القرم من أشياخهم وعدلناه ببدر فاعتدل^٢!

وقال سبط ابن الجوزي: والمشهور عن يزيد في جميع الروايات: أنّه لمّا أحضر الرأس بين يديه كان قد جمع جمعاً من أهل الشام، وجعل ينكته بالخيزرانة ويقرأ الأبيات ... حتّى جاء في «كتاب الوجهين والروايتين» للقاضي أبي يعلى عن أحمد بن حنبل أنّه قال: إن صحّ ذلك عن يزيد فقد فسق! وقال مجاهد:

فقد نافق. وقال الشعبي: وزاد فيها يزيد، قال:

لعبت هاشمٌ بالمُلْكِ فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌّ نزل
لستُ من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعَل^٣
ولمّا وُضِعَتْ رؤوس أهل بيت الحسين وأصحابه بين يدي يزيد تمثّل بقول المرّي:

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما!
وكان يحيى بن الحكم أخومروان حاضراً فقال:

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٠ عن الكلبي. والقي: القفر، والسبب: القاحلة الجرداء، وفي الإرشاد ٢: ١١٩.

٢. مقاتل الطالبيين: ٨٠.

٣. تذكرة الخواص ٢: ١٩٥-١٩٦ بتحقيق تقي زاده. وخندف اسم إحدى جدّاته.

لهام بجنب الطفّ، أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سميّة أمسى نسلها عدد الحصى
وبنت رسول الله ليس لها نسل!
فضرب يزيد في صدر يحيى وقال له: اسكت!^١
ثمّ أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، وبيده قضيب ينكت به في
ثغره!

وكان ممّن دخل عليه الصحابيّ أبو برزة الأسلمي الأنصاري من أصحاب
رسول الله ﷺ، فلمّا رأى يزيد يفعل ذلك أنكره وقال: أتنتك بقضيبك في ثغر
الحسين! أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لربّما رأيت رسول الله ﷺ
يرشفه! أما إنك يا يزيد (كذا بدون لقب) تجيء يوم القيامة وشفيعك ابن زياد!
ويجيء هذا يوم القيامة وشفيعه محمّد ﷺ! ثمّ قام فوكى.

وسمعتُ دور الحديث هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز زوجة يزيد،
فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت:

يا أمير المؤمنين! رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله!
قال: نعم! فأعولي عليه وحُدّي على ابن بنت رسول الله! وصريخة قريش!
عجّل عليه ابن زياد فقتله.^٢

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٠ - ٤٦١ عن أبي مخنف، والإرشاد ٢: ١١٩ - ١٢٠.

٢. كان ذلك قبل وصول السبايا إلى الشام.

أم سلمة ونعي الحسين عليه السلام

روى اليعقوبي عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ: أنه كان قد دفع إليها قارورة فيها تربة وقال لها: إن جبرئيل أعلمني أن أمتي تقتل الحسين! وأعطاني هذه التربة. وقال النبي لي: إذا صارت دماً عبيطاً فأعلمي أن الحسين قد قتل! فلمّا (خرج الحسين عليه السلام إلى العراق) جعلت تنظر إلى القارورة في كلّ (يوم) فلمّا رأتها قد صارت دماً صاحت وا حسينا! وا ابن رسول الله!

وروي عن سلمى بنت أبي رافع القبطي، قالت: ارتفعت واعيّة من حجرة أم سلمة، فكنت أول من أتاها ورأيت بين يديها قارورة تفور دماً، فقلت لها: يا أم المؤمنين! ما دهاك؟! قالت: رأيت رسول الله ﷺ في المنام والتراب على رأسه! فقلت له: ما لك؟ فقال: وثب الناس على ابني فقتلوه، وقد شهدته الساعة قتيلاً! فاقشعرّ جلدي! فوثبتُ إلى هذه القارورة التي دفعها رسول الله إليّ وفيها رمل من الطفّ وقال لي: إذا تحوّل هذا دماً عبيطاً فعند ذلك يقتل الحسين. فوجدتها تفور دماً!

وروى الطوسي بسنده عن ابن عباس، قال: بينا أنا راقد في منزلي (بالمدينة) إذ سمعت من بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ صراخاً عالياً! فقلت لقائدي يقودني إليها، فخرج بي، وأقبلت إليها النساء الهاشميات، فهي أقبلت عليهنّ وقالت لهنّ:

١. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٥-٢٤٦.

٢. بحار الأنوار ٤٥: ٢٣٢ عن بعض كتب المناقب!

يا بنات عبد المطلب! أسعدنني وابكين معي، فقد والله قتل سيّد كنّ وسيّد شباب أهل الجنة! قد والله قتل سبط رسول الله وريحانته الحسين! فقلت لها: يا أمّ المؤمنين! ومن أين علمت ذلك؟ قالت: رأيت رسول الله في المنام الساعة شعناً مذعوراً! فسألته عن شأنه ذلك؟ فقال: قتل ابني الحسين وأهل بيته اليوم، والساعة فرغت من دفنهم!

قالت: فقامت حتّى دخلت البيت وأنا لا أكاد أن أعقل، فنظرت فإذا بتربة الحسين التي أتى بها جبرئيل من كربلاء وقال: إذا صارت هذه التربة دمّاً فقد قتل ابنك! وأعطانيها النبيّ فقال: اجعلي هذه التربة في قارورة أوزجاجة ولتكن عندك، فإذا صارت دمّاً عبيطاً فقد قتل الحسين! فرأيت القارورة الآن وقد صارت تفور دمّاً عبيطاً! وكانت أمّ سلمة قد لطّخت بذلك الدم وجهها، واتّخذت ذلك اليوم مأتماً ومناحة على الحسين عليه السلام!

واختار شيخه المفيد خبراً آخر عن أمّ سلمة، قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من عندنا ذات ليلة فغاب عنا طويلاً، ثمّ جاءنا ويده مضمومة وهو أشعث أغبر! فقلت له: يا رسول الله! ما لي أراك شعناً مغبراً؟! فقال: أسري بي في هذا الوقت إلى موضع من العراق يقال له: كربلاء، فأريت فيه مصرع الحسين ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي! فلم أزل ألقط (من) دمائهم! فها هي في يدي. وبسطها إليّ، وقال: خذوها واحتفظي بها. فأخذتها فإذا هي شبه تراب أحمر! فوضعتها في قارورة وشدّدت رأسها واحتفظت بها.

فلما خرج الحسين من مكّة متوجّها نحو العراق، كنت أخرج القارورة في كلّ يوم وليلة وأنظر إليها وأشمّها ثمّ أبكي لمصابه! فلما كان اليوم العاشر من

١. أمالي الطوسي: ٣١٥ المجلس ١١، ح ٧٨، المجلس ١١، وبعده: ثمّ جاءت الركبان بخبره وأنّه قتل في ذلك اليوم.

المحرّم أخرجتها أوّل النهار فكانت بحالها، ثمّ عدت إليها آخر النهار فإذا هي دم عييط! فصحت وبكيت.

قالت: (ولكنّي) كتمت غيظي مخافة أن يسمع أعداؤهم بالمدينة فيسرعوا بالشماتة! ولم أزل حافظة للوقت حتّى جاء الناعي ينعاه، فحقّق ما رأيت^١.

قال: ولمّا أنفذ ابن زياد برأس الحسين عليه السلام إلى يزيد دعا عبد الملك بن أبي الحديث السلمي^٢.

وفي الطبري عن الكلبي: عبد الملك بن أبي الحارث السلمي، وأعطاه دنانير وقال له: انطلق ولا تعتلّ ولا يسبقك الخبر، وإن قامت بك راحلتك فاشترِ راحلة، حتّى تقدم المدينة على أميرها عمرو بن سعيد بن العاص فتبشّره بقتل الحسين^٣!

قال عبد الملك: فركبت راحلتي وسرت حتّى دخلت المدينة، فلقيني قرشيّ فسألني ما الخبر؟ فقلت له: تسمعه عند الأمير! فاسترجع وقال: قتل والله الحسين! ودخلت على عمرو بن سعيد فقال لي: ما وراءك؟ قلت له: ما يسرّ الأمير: قتل الحسين بن عليّ! فقال: فاخرج فناد بقتله! فخرجت فناديت بقتله!

فوالله لم أسمع قطّ واعية مثل واعية نساء بني هاشم حين سمعوا النداء بقتله! فعدت إلى عمرو بن سعيد، فلمّا رآني تبسّم ضاحكا ثمّ تمثّل بقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

عجّت نساء بني زياد عجةً كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثمّ قال: هذه واعية بواعية عثمان بن عفّان^٤.

وروى المعتزلي عن «المثالب» لأبي عبيد القاسم بن سلّام البصري، قال:

١. الإرشاد ٢: ١٣٠. وعليه فالصياح والبكاء السابقان كانا خاصّين ولم يكن عامّين. وكانت وفاة أمّ سلمة في (٦٣هـ).

٢. الإرشاد ٢: ١٢٣.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٤ عن الكلبي عن عوانة.

٤. الإرشاد ٢: ١٢٣، تاريخ الطبري ٥: ٤٦٤.

كتب ابن زياد إلى عمرو بن سعيد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام، فقرأ كتابه على المنبر ثم أنشد:

يا حبّذا بردك في الديدن وحمرة تجري على الخدين
كأنما بتّ بمحشدين!

ثمّ أوماً إلى القبر الشريف قائلاً: يوم بيوم بدر! فأنكر عليه ذلك قوم من الأنصار^١!

وحين سمعت نعي الحسين عليه السلام أمّ لقمان بنت عقيل بن أبي طالب خرجت ومعها نساؤها وهي حاسرة وتلوي بثوبها على رأسها وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم: ماذا فعلتم! وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرجوا بد^٢
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي^٣

ولما علم الناس بقتل ابني عبد الله بن جعفر (محمد وعون) مع الحسين عليه السلام، دخلوا عليه يعزّونه، وكان له مولى يدعى أبا اللسلاس فقال: هذا ما دخل علينا من الحسين! فخذه عبد الله بن جعفر بنعاله وقال له: يا ابن اللخنا! أللحسين تقول هذا؟! والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتّى أقتل معه! والله إنّه لمما يسخّي بنفسي عنهما ويهوّن عليّ المصاب بهما: أنّهما أصيبا مع أخي وابن عمّي مواسيين له صابرين معه. ثمّ أقبل على جلسائه وقال: الحمد لله عزّ وجلّ على مصرع الحسين، إن لا تكن يدي آست حسينا فقد آساه ولداي^٤. أو قال: إن لا أكن آسيت حسينا بيدي فقد آساه ولدي^٥.

١. شرح النهج للمعتزلي ٤: ٧٢ عن كتاب المثالب.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٦١ - ٤٦٢ عن أبي مخنف.

٣. الإرشاد ٢: ١٢٤.

٤. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٦ عن أبي مخنف.

٥. الإرشاد ٢: ١٢٤.

السبايا في الشام

روى الصدوق بسنده عن حاجب ابن زياد عن من صحب السبايا إلى الشام، قالوا: دخلنا دمشق بالنساء السبايا بالنهار مكشّفات الوجوه! فقال بعض أهل الشام: ما رأينا سبايا أحسن من هؤلاء! فمن أنتم؟ فقالت سكينه بنت الحسين: نحن سبايا آل محمّد.

وكانوا من قبل يوقفون السبايا على درج المسجد الجامع بدمشق ليراهم الناس، فأقاموهم عليه، فأتاهم شيخ من أهل الشام فقال لهم: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وقطع قرن الفتنة! وما زال يشتمهم.

فلما انقضى كلامه قال له عليّ بن الحسين: أما قرأت كتاب الله عز وجل؟ قال: بلى قد قرأت. قال: أما قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^١؟ قال: بلى. قال: فنحن أولئك!

ثم قال: أما قرأت: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^٢؟ قال: بلى. قال: فنحن هم! ثم قال: فهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٣؟ قال: بلى. قال: فنحن هم!

فرفع الشيخ الشامي يده إلى السماء وقال ثلاثاً: اللهم إني أتوب إليك. ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمّد ومن قتلة أهل بيت محمّد. لقد قرأت القرآن فما شعرت بهذا قبل اليوم.

ثم أدخل نساء الحسين عليه السلام على يزيد بن معاوية^٤.

١. الشورى: ٢٣.

٢. الإسراء: ٢٦.

٣. الأحزاب: ٣٣.

٤. أمالي الصدوق: ٢٣٠، المجلس ٣١، ح ٢.

السبايا والسجّاد عليه السلام عند يزيد:

وجلس يزيد بن معاوية وقد دعا أشراف أهل الشام وأجلسهم حوله، ثمّ دعا بعليّ بن الحسين عليه السلام وصبياناه ونسائه فأدخلوا عليه والناس ينظرون .. فرأى هيئته قبيحة فقال: قبح الله ابن مرجانة! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا! فرق لهم وأمر لهم بشيء من الألفاف!

وقال لعليّ بن الحسين عليه السلام: يا عليّ! أبوك الذي قطع رحمي! وجهل حقّي! ونازعني سلطاني! فصنع الله به ما قد رأيت! فتلا الإمام عليه قوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾^١.

وكان خالد بن يزيد عند أبيه فقال له أبوه يزيد: اردد عليه! فما درى خالد بماذا يردّ عليه؟ فقال يزيد: قل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^٢ ثمّ سكت.

فقام إليه رجل أحمر من أهل الشام وقال له: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية، وأشار إلى فاطمة بنت الحسين عليه السلام! فخافت وأخذت بثياب عمّتها زينب، فالتفت إليه زينب وقالت له: كذبت - والله - ولؤمت! ما ذلك لك ولا له!

فغضب يزيد وقال لها: كذبت والله! إنّ ذلك لي! ولو شئت أن أفعله لفعلت!

فقالت زينب: كلا - والله - ما جعل الله ذلك لك! إلا أن تخرج من ملّتنا وتدين بغير ديننا!

١. الحديد: ٢٢.

٢. الشورى: ٣٠. وروى أبو الفرج: أنّ يزيد بدأ بهذه الآية فأجابه الإمام بآية الشورى، وهو أنسب.

فغضب يزيد واستطار غضباً وقال: أيّاي تستقبلين بهذا! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!

فقلت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدك!

فقال لها: كذبت يا عدوة الله!

فقلت: أنت أمير مسلّط تشتم ظالما وتقهّر بسلطانك! فسكت!

فعاد الشامي فقال: يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية!

فقال له يزيد: اعزب! وهب الله لك حتفاً قاضياً!

خطبة العقيلة في مجلس يزيد:

أرسل ابن أبي طيفور البغدادي^٢ قال: لما جعل يزيد ينكت ثنانيا الحسين عليه السلام بقضيبه وهوينشد شعره ...

قالت زينب: «صدق الله ورسوله يا يزيد! ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ﴾^٣ أظننت يا يزيد! أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى: أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة! وأنّ هذا لعظيم خطرك! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان فرحاً! حين رأيت الدنيا مستوسقة لك والأمور متسقة عليك، وقد أمهلت ونفّست! وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

١. الإرشاد ٢: ١٢٠ - ١٢١، وانظر تاريخ الطبري ٥: ٤٦١ - ٤٦٢ عن أبي مخنف، ومختصره عن الباقر عليه السلام: ٣٩٠.

٢. وأسنده الخوارزمي في المقتل ٢: ٦٣ عن رجل من تميم الكوفة!

٣. الروم: ١٠.

كَفَرُوا أَنَّمَا مَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ^١.

أَمِنْ الْعَدْلِ - يَا ابْنَ الْطَلْقَاءِ - تَخْدِيرُكَ حَرَائِكَ وَإِمَاءَكَ وَسَوْقَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا! قَدْ هَتَكَتِ سَتُورَهُنَّ، وَأَصَحَّتْ أَصْوَاتُهُنَّ! مَكْتِثَاتٍ! تَخْذِي بِهِنَّ الْأَبَاعِرَ، وَيَحْدُو بِهِنَّ الْأَعَادِي مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، لَا يَرَاقِبْنَ وَلَا يُوَوِّينَ، وَيَتَشَوَّفُهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، لَيْسَ مَعَهُنَّ وَلِيٌّ مِنْ رَجَالِهِنَّ.

وَكَيْفَ يَسْتَبْطِئُ فِي بَغْضَتِنَا مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالْشَنْفِ وَالشَّنَّانِ وَالْإِحْنِ وَالْأُظْغَانِ؟! وَتَقُولُ: «لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهْدُوا» غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ وَلَا مُسْتَعْظَمٍ! وَأَنْتِ تَنْكُتِ ثَنَايَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بِمَخْصَرَتِكَ!

وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتِ الْقَرْحَةَ وَاسْتَأَصَلْتَ الشَّافَةَ، بِإِهْرَاقِكَ دِمَاءِ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَجُومِ الْأَرْضِ مِنْ آلِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَلِتَرْدُنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكاً مُورِدَهُمْ، وَلِتُودِّنَ أَنَّكَ عَمِيتَ وَبِكَمْتَ وَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ: «لَاهَلُّوا وَاسْتَهَلُّوا فَرَحاً»!

وَاللَّهُ مَا فَرِيتَ إِلَّا جِلْدَكَ، وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا لِحْمَكَ، وَسَتَرِدِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَغْمِكَ ... يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَ لِحْمَتِهِ وَعِثْرَتِهِ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ مَلْمُومِينَ مِنَ الشَّعْثِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^٢.

وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ وَمَكْنَنِكَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا كَانَ الْحَكَمُ لِلَّهِ وَالْخَصْمُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَجَوَارِحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ! فَبئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْكُمُ «شَرٌّ» مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْدًا^٣.

١. آل عمران: ١٧٨.

٢. آل عمران: ١٦٩.

٣. مريم: ٧٥.

مع أني - والله يا عدو الله وابن عدوه - أستصغر قدرك وأستعظم تقريعك! غير أن العيون عبرى والصدور حرى! وما يجزي ذلك أويغني عنا وقد قتل الحسين عليه السلام ... يعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله! فهذه الأيدي تنطف من دمائها، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات! فلئن اتخذتنا مغنما فلتجدن مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمت يدك، تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك! وتتعاوى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد صلى الله عليه وآله!

فوالله ما اتقيت الله، ولا شكواي إلا إلى الله، فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك! فوالله لا ترحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً.

والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبّان الجنان وأوجب لهم الجنة، وأسأل الله أن يرفع لهم الدرجات وأن يوجب لهم المزيد من فضله، فإنه وليّ قدير^١.

وأسكت يزيد حتى سككت زينب ثم تمثّل بقول القائل:

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح^٢

ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة متصلة بدار يزيد، فأفردت لهم، ومعهم عليّ بن الحسين عليه السلام^٣، ومعهم ما يصلحهم، فأخرجوا إلى تلك الدار، واجتمع نساء آل معاوية فاستقبلنهن بالبكاء والنوح على الحسين عليه السلام ثلاثة أيام^٤.

١. بلاغات النساء: ٢١-٢٣.

٢. مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٦٦ مسنداً عن رجل من تميم الكوفة!

٣. الإرشاد ٢: ١٢٢.

٤. تاريخ الطبري ٥: ٤٦٢ عن أبي مخنف عن فاطمة. وروي عن الباقر عليه السلام قال: ثم أدخلهم على عياله ٥: ٣٩٠. وهذا لا يدع مجالاً لخبر إسكانهم في خربة بدمشق ووفاة ابنة صغيرة للحسين عليه السلام فيها

ورأس الحسين عليه السلام إلى المدينة:

نقل البلاذري عن الكلبي قال: بعث يزيد رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة^١.

فصرخت نسوة آل أبي طالب، فسمعهن مروان بن الحكم فتمثل وقال:

عجّت نساء بني زياد عجةً كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثمّ تمثل بقول ابن منقذ العدويّ في كتيبة «دوسر» للنعمان بن المنذر:

ضربت دوسر فيهم ضربة أثبتت أركان ملك، فاستقرّ^٢

وقال عمرو بن سعيد: وددت أنّ أمير المؤمنين! لم يبعث إلينا برأسه! فقال له

مروان: بشما قلت! هاته! ثمّ تناول منه الرأس فوضعه بين يديه، ثمّ أخذ بأرنبه أنفه وقال:

يا حبّذا بردك في اليمين ولونك الأحمر في الخدين^٣

لكأني أنظر إلى أيّام عثمان^٤.

وخطب عمرو الأشدق فتشدّق بقتل الحسين عليه السلام، فقام ابن أبي حبيش

الأسدي القرشي فقال: رحم الله فاطمة! فقال له عمرو: وما أنت وفاطمة؟ قال:

⇒

باسم رقية، بل لا ذكر في الأنساب والتواريخ المعتبرة لبنات الحسين عليه السلام سوى سكينه وهي في العاشرة من عمرها - السيدة سكينه للمقرّم: ٨٩ - وفاطمة، وهي في حدود السابعة من عمرها.

والمرقد المنسوب إلى رقية بدمشق لعلّه لرقية أخت الحسين عليه السلام زوجة ابن عمّها مسلم بن عقيل، فإنّها كانت معهم، ولا ذكر لها بعد كربلاء، فلعلّها مرضت هناك من وعشاء السفر والقهر، بعد قتل ابنها الصغيرين، فماتت ودفنت هناك. كما كان على صخرة القبر حين اكتشف قبل قرن تقريباً: «هذا قبر رقية بنت عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه».

١. أنساب الأشراف ٣: ٢٢٥، ح ٢٢٤.

٢. أنساب الأشراف ٣: ٢٢٣، ح ٢٢١، ودوسر بالفارسية أي ذات الرأسين.

٣. الطبقات الكبرى، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٨٤ برقم ٢٩٧، وأنساب الأشراف ٣: ٢٢٣، ح ٢٢٠.

٤. تذكرة الخواص ٢: ٢٠٦ - ٢٠٧.

أمها خديجة- يريد أنها أسدية من قومه - فقال عمرو: نعم والله، وابنة محمد! أخذتها يمينا وأخذتها شمالا! ووددت والله أن أمير المؤمنين! كان نحاه عني ولم يرسل به إلي! ووددت والله أن رأس حسين كان على عاتقه، وروحه كان في جسده^١.

ونصب الرأس على خشبة، ثم رُدَّ إلى دمشق^٢.

خطبة السجّاد عليه السلام بالشام:

كان يزيد راوية للشعر وشاعرا كما مرّ، ولم نجد له فيما بأيدينا خطبة، وقد مرّ الخبر عن خطبة ابن زياد في المسجد الجامع بالكوفة بعد جلسة القصر، وكان يزيد بدل أن يخطب أحضر الإمام السجّاد عليه السلام إلى المسجد الجامع بالشام ضحى قبيل الزوال، واستحضر الناس، وخطيباً أمره أن يخطبهم فيذكر للناس مساوئ الحسين وأبيه علي عليه السلام ويقرّظ معاوية ويزيد.

فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم أطنب في تقرّظ معاوية ويزيد، وأكثر الوقعة في علي والحسين عليه السلام! وكان الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفترة قد تماثل للشفاء، فصاح به:

ويلك أيّها الخاطب! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق! فتبوا مقعدك من النار!

ثم التفت إلى يزيد وقال له: يا يزيد (كذا بدون لقب) إئذن لي حتّى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنّ لله رضا، ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب! فأبى يزيد، فقال له بعض الناس: يا أمير المؤمنين! ائذن له ليصعد فلعلنا نسمع منه شيئاً.

١. الطبقات الكبرى: ٦٦، الباب ٤٧، ح ٢٩٧، وفي قسم الترجمة المنشورة: ٨٤ - ٨٥، وأنساب الأشراف

٣: ٢٢٤، ح ٢٢٣.

٢. أنساب الأشراف ٣: ٢٢٥، ح ٢٢٤ عن الكلبي.

فقال لهم: إن صعد المنبر هذا لم ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان! فقالوا: وما قدر ما يحسن هذا؟! فقال: إنه من أهل بيت قد زُقوا العلم زُقاً! فلم يزالوا به حتّى أذن له بالصعود^١.

وقال الإصفهاني الأموي: أمره أن يصعد المنبر فيخطب فيعتذر إلى الناس ممّا كان من أبيه! فصعد المنبر وخطب خطبة طويلة منها:

«أيّها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي: أنا عليّ بن الحسين، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير» ثمّ قال: وهي خطبة طويلة كرهت الإكثار بذكرها ونظائرها^٢. ونقلها الحلبي عن الأوزاعي في «الكتاب الأحمر»: أنّه لما نزل الخطيب قام عليّ بن الحسين فقال^٣ وذكرها الخوارزمي أنّه قال:

«أيّها الناس! أعطينا ستّاً وفضلنا بسبع:

أعطينا: العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين.

وفضلنا: بأنّ منّا النبي المختار محمدًا ﷺ، ومنّا الصديق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد الرسول، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمة وسيّدا شباب أهل الجنة.

أيّها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي: أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرّداء، أنا ابن خير من اتّزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حُمِل على البراق

١. مقتل الحسين ﷺ للخوارزمي ٢: ٦٩.

٢. مقاتل الطالبين: ٨١.

٣. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٨١.

في الهواء، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى! أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدره المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى! أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى.

أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله! أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين (ذي الفقار وغيره) وهاجر الهجرتين (إلى المدينة واليمن!) وباع البيعتين (يوم الدار والرضوان) وصلى إلى القبلتين (الكعبة وبيت المقدس) وقاتل بيدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين.

أنا ابن «صالح المؤمنين» و«يعسوب الدين» ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل طه وياسين ورسول رب العالمين.

أنا ابن المؤيد بجبرائيل، والمنصور بميكائيل.

أنا ابن المحامي عن حريم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين! والمجاهد أعداء الناصبين! وأفضل من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، ولسان حكمة الله، وعية علم الله. سمح سخي، بهلول زكي أبطحي، رضي مرضي، مقدم همام، صابر صوام، مهذب قوام، شجاع قمقام. قاطع الأصلاب، ومفرق الأحزاب. أربطهم جنانا، وأطلقهم عنانا، وأجرأهم لسانا. وأمضاهم عزيمة، وأشدّهم شكيمة. أسد باسل وغيث هائل. إذا ازدلفت في الحروب الأسنة وقربت الأعنة يطحنهم طحن الرحي، ويذروهم ذرو الرياح الهشيم! ليث الحجاز! وصاحب الإعجاز، وكبش العراق، والإمام بالنص والاستحقاق. مكّي مدني، أبطحي تهامي، خيفي عقبي،

بدري أحدي، مهاجري شجري (بيعة الشجرة). من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها. وارث المشعرين (الحرام المزدلفة، والحلال عرفات) وأبوالسبطين الحسن والحسين عليه السلام. مظهر العجائب، ومفرّق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب (المتعاقب) أسد الله الغالب، مطلوب كلّ طالب، وغالب كلّ غالب. ذاك جدّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول.

ثمّ لم يزل يقول أنا أنا، حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشى يزيد أن تكون فتنة (وآن أو ان الأذان) فأمر المؤذّن أن يؤذّن، فرفع المؤذّن صوته وقال: الله أكبر! فقال عليّ بن الحسين: كبرت كبيراً لا يقاس ولا يدرك بالحواس! لا شيء أكبر من الله! فلمّا قال المؤذّن: أشهد أن لا إله إلا الله، قال عليّ: شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ومخيّ وعظمي! فلمّا قال المؤذّن: أشهد أن محمّداً رسول الله، ولم يزل عليّ على المنبر، فالتفت إلى يزيد وقال له: يا يزيد (بدون لقب) محمّد هذا جدّي أم جدّك؟! فإن زعمت أنّه جدّك فقد كذبت! وإن قلت: أنّه جدّي، فلم قتل عترته؟! وأكمل المؤذّن الأذان والإقامة، فتقدّم يزيد وصلى بهم الظهر^١، وإنما صلى معه بعضهم وتفرّق آخرون فلم يصلّوا معه^٢.

ثمّ قام إليه المنهال بن عمرو والطائي الكوفي، وكان حاضراً بدمشق الشام فقال له: كيف أمسيت يا بن رسول الله؟

فقال له: ويحك كيف أمسيت؟ أمسينا فيكم كهيئة بني إسرائيل في آل فرعون: يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم! وقد أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً منها! وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأنّ محمّداً منها،

١. مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٦٩-٧١.

٢. الكامل البهاني ٢: ٣٠٢.

وأمسى آل محمد مقهورين مخذولين! فإلى الله نشكو كثرة عدونا وتظاهر الأعداء علينا وتفرق ذات بيننا^١.

وكان يزيد أراد استعادة هبة حكمه، فأمر بحمل رأس الحسين عليه السلام والتطواف به في دمشق، وأمامه قارئ يقرأ من القرآن سورة الكهف حتى بلغ قوله:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^٢ وكان المنهال الطائي الكوفي حاضرا قال: فأنطق الله الرأس فقال بلسان ذلق ذرب: أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي^٣.

ردّهم إلى أوطانهم

عرفنا تساهل النعمان بن بشير الأنصاري في التشديد على «شيعة» الحسين عليه السلام في الكوفة، فعزله يزيد بابن زياد، فعاد النعمان إلى أحضان حفيد أبي سفيان يزيد، فكأنما اليوم أراد تأنيبه على ذلك فدعاه، فلما جاء قال له: كيف رأيت ما فعل عبيد الله بن زياد؟ فقال: الحرب دول! وكأنه يريد أن الأمر لم يكن مضمونا لهم. فقال يزيد: الحمد لله الذي قتله! فأراد النعمان أن يبرّر تساهله فقال: قد كان أمير المؤمنين (معاوية!) يكره قتله!

فقال يزيد: ذلك قبل أن يخرج! ولو خرج على أمير المؤمنين (معاوية!) لقتله - والله - إن قدر عليه! فقال النعمان: ما كنت أدري ما كان يصنع^٤!

١. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٨٢. والطبري في ذيل المذيل: ٦٣٠، عن الطبقات لابن سعد ٥: ٢١٨.

٢. الكهف: ٩.

٣. الخرائج والجرائح ٢: ٥٧٧، ح ١ مرسلًا، وكذا السيوطي في الخصائص ٢: ١٢٧.

٤. ثم خرج النعمان، فقال يزيد لمن حضره: هو كما ترونه منقطع إلينا وقد ولّاه أمير المؤمنين! ورفع، ولكن أبي كان يقول: لم أعرف أنصارياً قط إلا يحبّ علياً وأهله ويبغض قريشاً بأسرها! مقتل الخوارزمي ٢: ٥٩ عن ابن سعد عن الواقدي بسنده.

ثمّ لما تبني يزيد على التظاهر بعدم التبني والالتزام بإجرام ابن زياد بقتل الحسين عليه السلام، تمايل إلى جانب النعمان يشاوره فيمن حضره من أهل الشام قال لهم: يا أهل الشام! ما ترون في هؤلاء؟

فقال النعمان: انظر ما كان يصنعه بهم رسول الله صلى الله عليه وآله لو رآهم في هذه الحالة، فاصنعه بهم! فقال: صدقت، خلّوا عنهم، وكساهم^١ وأمر بردهم إلى المدينة^٢ وقال له:

يا نعمان بن بشير! جهّزهم بما يصلحهم، وابعث معهم من أهل الشام رجلاً صالحاً أميناً! وابعث معه أعواناً وخيلاً، فيسير بهم إلى المدينة^٣. وسمح لهم أن يحملوا معهم الرؤوس ولا سيما رأس الإمام عليه السلام^٤، فكان عليهم أن يمرّوا بكربلاء في الراجح.

فخرج بهم، وكان يسايرهم من خلفهم وهم أمامه بحيث لا يفوتون طرفه، فإذا نزلوا تنحّى عنهم، وتفرّق هو وأصحابه حولهم يحرسونهم، بحيث إذا أراد أحدهم قضاء حاجة لم يحتشم، فلم يزل هكذا ينازلهم في الطريق ويسألهم عن حوائجهم^٥.

١. العقد الفريد ٤: ٣٨٢.

٢. مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٦٦ مع ما قبله.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٦١-٤٦٢ عن أبي مخنف عن فاطمة ابنة الحسين عليه السلام، وانظر الإرشاد ٢: ١٢٢.

٤. انظر: مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٤٦٩-٤٧٠، ونفس المهموم: ٤٦٦-٤٦٧، وتذكرة الخواص ٢: ٢٠٦-٢٠٩.

٥. المصدران الأسبقان.

فزاروا الحسين عليه السلام في أربعينه

على ما مرّ من موافقة يزيد على حملهم معهم الرؤوس ولا سيّما رأس الحسين عليه السلام، كان من الراجح في غالب الظن أن يحملوها إلى مدفنهم ب كربلاء، ولمّا كانوا يسألونهم عن حوائجهم كما مرّ خبره، قالوا لدليلهم: مرّ بنا على طريق العراق إلى كربلاء. فزاروا قبور الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السّلام ودفنوا رؤوسهم عندهم، ثمّ عرّجوا على مدينة جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله.^١

وأرسل ابن نما، قال: ولمّا ورد عيال الحسين عليه السلام إلى كربلاء وجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري وجماعة من بني هاشم قدموا لزيارته في وقت واحد، فتلاقوا بالحزن والاكتئاب والنوح على ذلك المصاب^٢. ولعلّه عنه أخذ ابن طاووس وزاد: فتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم، وأقاموا المآتم المقرّحة للأكباد، واجتمع إليهم نساء ذلك السواد فأقاموا على ذلك أيّاماً^٣.

ولعلّه لذلك أمر الصادق عليه السلام صفوان بن مهران الجمّال بأن يزور الحسين عليه السلام في الأربعين^٤. وعدّها العسكري عليه السلام من علامات المؤمنين^٥.

١. قال أبو ريحان البيروني (م ٤٤٠ هـ) في كتابه: الآثار الباقية عن القرون الخالية: ٣٣١: «وفي العشرين (من شهر صفر سنة ٦٠ هـ) زيارة الأربعين، وهم حرم (الحسين عليه السلام) بعد انصرافهم من الشام، وردّوا رأس الحسين عليه السلام إلى مجثمه حتّى دفن مع جثّته». وهو أقدم كتاب في هذا الباب.

٢. مثير الأحزان لابن نما: ٥٩، وهو أقدم نصّ بهذا المعنى.

٣. كتاب الملهوف على قتلى الطفوف: ١٧٦، ولعلّه يشير إلى المثير في الإقبال لما قال: «ووجدت (في غير المصباح): أنّهم وصلوا كربلاء في عودتهم من الشام يوم العشرين من صفر» واستبعاده مردود بردود السيد القاضي في: تحقيق أربعين الحسين عليه السلام.

٤. التهذيب ٦: ١١٣، ح ٢٠١، ومصباح المتهجّد ٢: ٧٣٠.

٥. التهذيب ٦: ٥٢، ح ١٢٢، ومصباح المتهجّد: ٧٣٠، وأصلها عشرة في الهداية الكبرى للخصيبي مسنداً.

ثم انفصلوا من كربلاء نحو المدينة حتّى قربوا منها فنزلوا:

لم يعرف من الرجال الذين أرسلهم يزيد مع آل الحسين عليه السلام ومع النعمان بن بشير الأنصاري المدني إلى المدينة، وأمرهم بالرفق بهم وباتباعهم للإمام السجّاد عليه السلام، لم يعرف منهم سوى من سمّاه ابن طاووس ببشير بن حذام، ويظهر من الخبر أنّه كان قد تقرّب إلى الإمام وعرفه بنفسه وأنّ أباه كان شاعراً، فهنا يقول: إنّ الإمام قال له: يا بشير، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قال: بلى يا بن رسول الله إني لشاعر. فقال له: فادخل المدينة وانع أبا عبد الله عليه السلام. ويظهر أنّ أمير ذلك الخيل والنعمان الأنصاري لم يأبى ذلك عليه، فركب فرسه إلى المدينة حتّى بلغ المسجد النبوي الشريف فرفع صوته قائلاً:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قُتِلَ الحسين! فادمعي مدرارُ

الجسمُ منه بكربلاء مُضَرَّجٌ والرأس منه على القناة يُدارُ

ويظهر أنّه كرّر ذلك حتّى اجتمع الناس حوله فقال لهم: هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم اعرفّكم مكانه. قال: فلم أر يوماً أمرّ على المسلمين منه! ولم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم! وخرجن النساء يدعون بالويل والثبور، ويضربن الخدود ويخمشن الوجوه، وفيهنّ جوارى نائحات ينحن على الحسين عليه السلام. ثمّ عرفّهم مكان نزولهم، فبادروه.

قال: فضربت فرسي ورجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي وتخطّيتهم حتّى قربت من فسطاط علي بن الحسين عليه السلام وكأنّهم كانوا قد تجهّزوا بكرسيّ معهم، وبعض الموالي أو الخدم، فخرج الإمام وهو يمسح دموعه بخرقه معه، وخلفه خادم يحمل معه كرسيّاً وضعه له فجلس عليه، ولمّا رآه الناس ارتفعت أصواتهم بالبكاء، وحنين النسوان والجوارى، وتقدّم إليه الناس من كلّ ناحية يعزّونه بأبيه، ثمّ أومأ إليهم بيده أن اسكتوا ثمّ قال:

الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين، الذي بَعْدَ فارتفع في السماوات العُلى، وقَرَّبَ فشهد النجوى. نحمده على عظام الأمور وفجائع الدهور، وألم الفجائع ومضاضة اللواذع، وجيل الرزء وعظيم المصائب، الفاضعة الكاظّة، الفادحة الجائحة.

أيّها القوم! إنّ الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة: قُتِلَ أبو عبد الله الحسين وعترته، وسُيِّتَ نساؤه وصبيته! وداروا برأسه في البلدان، من فوق عالي السنان! وهذه الرزية التي لا مثلها رزية!

أيّها الناس! فأَيَّ رجالات منكم يُسرّون بعد قتله؟! أم أيّة عين تحبس دمعها وتضنّ (تبخل) عن انهمالها؟! فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار والملائكة المقرّبون وأهل السماوات أجمعون.

يا أيّها الناس! أيّ قلب لا ينصدع لقتله؟! أم أيّ فؤاد لا يحنّ إليه؟! أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصمّ؟!!

أيّها الناس! أصبحنا مطرودين مشرّدين مذودين، وشاسعين عن الأمصار، كأنّا أولاد ترك وكابل من غير جرمٍ اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها ﴿ما سَمِعْنَا بهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾^١ والله لو أنّ النبيّ تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأوجعها وأفجعها، وأكظّها وأفضعها، وأمرّها وأفدحها! فعند الله نحتسب ما أصابنا وما بلغ بنا، فإنّه عزيز ذو انتقام^٢.

١. سورة ص: ٧، وفي الخبر: في آباءنا الأولين. خطأ، ولعله من سهو الرواة.

٢. كتاب الملهوف على قتلى الطفوف لابن طاووس: ١٧٧-١٨٢.

وكان الوصي عليه السلام كان قد رأى من اقتدائه بالنبي صلى الله عليه وآله في زيجاته الائتلافية أن يصاهر أولاد الزبير وطلحة، فزوّج الحسن عليه السلام ابنته أم الحسن لعبد الله بن الزبير، وتزوّج هو ابنة طلحة أم إسحاق، ورزق منها طلحة^١، لكنه مات صغيراً، وكانت أم إسحاق حسنة السلوك مع الحسن عليه السلام، فأوصى أخاه الحسين عليه السلام أن يتزوّجها فتزوّجها بعده، فرزق منها ابنته فاطمة^٢.

وكانت في السبايا، فلمّا عادت إلى المدينة زارها أخوها إبراهيم بن طلحة، وكأنه اغتتمها فرصة للشماتة بعلي بن الحسين عليه السلام، فتجراً بسوء الأدب وقال له: يا علي بن الحسين، من غلب؟! فذكره الإمام بما ذكر به يزيد في كلامه له بالشام، قال: إذا أردت أن تعلم من غلب فإذا دخل وقت الصلاة فأذن وأقم^٣ فيعرف الغالب بالباقي ذكره فيهما!

ابن الزبير وقتل الحسين عليه السلام:

روى الطبري عن أبي مخنف قال:

كان ابن الزبير يُظهر أنه عائد بالبيت ويباع الناس سرّاً، فلمّا قتل الحسين عليه السلام قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وآله ثم قال: إنّ أهل العراق غدر فجر إلا قليلاً، وإنّ أهل الكوفة شرار أهل العراق؛ فإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويؤكّوه عليهم، فلمّا قدم عليهم ثاروا إليه وقالوا له: إمّا أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً فيمضي فيك حكمه؛ وإمّا أن

١. أنساب الأشراف ٣: ٧٨، ح ٨٤.

٢. المعارف لابن قتيبة: ٢٣٣.

٣. أمالي الطوسي: ٦٧٧، المجلس ٣٧، ح ١١ بسنده عن الصادق عليه السلام، هذا، ولا نجد في أبناء طلحة إبراهيم، وإنما هو ابن محمد بن طلحة القتيل يوم الجمل، كما في المعارف لابن قتيبة: ٢٣١-٢٣٣ وعليه فهو ابن أخي أم إسحاق وهي عمته. ويعلم من خبر الصادق عليه السلام أنه اشتهر بنسبته إلى جدّه طلحة.

تحارب! فرأى أنه هو وأصحابه قليل في كثير... ولكنه اختار الميته الكريمة على الحياة الذميمة. فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتل حسين!

ثم قال: أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً؟! لا ولا نراهم أهلاً لذلك! أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم وأولى به، في الدين والفضل! أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء! ولا بالبكاء من خشية الله الحداء! ولا بالصيام شرب الحرام! ولا بالمجالس في حلق الذكر الرّكض في تطلاب الصيد! فسوف يلقون غيًّا! يعرض بيزيد.

وثار إليه أصحابه وقالوا له: أيها الرجل؛ إذ هلك حسين فإنه لم يبق أحد ينازعك هذا الأمر! فأظهر بيعتك! فقال لهم: لا تعجلوا.

ولما استقر عند يزيد ما جمع ابن الزبير حوله بمكة، عاهد الله ليوثقنه في سلسلة، ثم أعد سلسلة من فضة وبرنس خز ودعا ابن عضاه الأشعري ومسعدة ومعهما جمع، وأرسلهم إليه ليأتوا به إليه في جامعة فضة ليريمينه، فمروا بالمدينة فبعث معهم مروان بابنيه عبد الملك وعبد العزيز، فردّهم ردّاً رقيقاً^١.

وقال اليعقوبي: إنّ ابن الزبير أجاب ابن عضاه الأشعري بجواب غليظ! فقال له ابن عضاه: إنّ الحسين بن عليّ كان أجلاً قدراً في الإسلام وأهله من قبل، وقد رأيت حاله! يهدّده بمصير الحسين، فقال له ابن الزبير: إنّ الحسين بن عليّ خرج إلى من لا يعرف حقّه! وإنّ المسلمين قد اجتمعوا عليّ! فقال له: فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك. وانصرف عنه^٢.

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٧٤-٤٧٧ عن أبي مخنف.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٧.

وعمر بن سعيد يومئذ عامل مكة والمدينة، فكان مع شدّته عليه يداريه ويرفق به. فوفد الوليد بن عتبة وناس معه إلى يزيد وقالوا له: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك. فسرّح الوليد أميراً على الحجاز وعزل عمرأً لهلال ذي الحجّة موسم سنة إحدى وستين^١.

وكما تمرّد ابن الزبير بعد قتل الحسين عليه السلام كذلك تمرّد باليمامة نجدة بن عامر الحنفي في بني حنيفة من تميم، وحجّ بهم، وحجّ ابن الزبير بأصحابه، وحجّ الوليد، ولم يتّبعاه في الموسم^٢.

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٧٧.

٢. المصدر السابق ٥: ٤٧٩.

يزيد، بعد الحسين الشهيد

قال السيوطي الشافعي: لما قتل ابن زياد الحسين وبني أبيه وبعث برؤوسهم إلى يزيد، سرّ بقتلهم أولاً، ثمّ لمّا مقته المسلمون وأبغضه الناس على ذلك ندم. ثمّ نقل عن «مسند أبي يعلى» عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «لا يزال أمر أمّتي قائماً بالقسط حتّى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمّية يقال له: يزيد» وضعف سنده^١، ولكنّه قال: لعن الله قاتل الحسين وابن زياد معه ويزيد أيضاً^٢.

وروى البلاذري قال: كتب يزيد إلى ابن زياد: أمّا بعد، فزد أهل الكوفة أهل السمع والطاعة في أعطياتهم مئة مئة^٣.

وحكى المسعودي: أنّه بعد قتل الحسين عليه السلام جلس ذات يوم على شرابه وقد دعا إليه ابن زياد فأجلسه عن يمينه وأقبل على ساقيه وقال له:

اسقني شربةً تروّي مشاشي	ثمّ مر فاسقٍ مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندي	ولتسديد مغنمي وجهادي
ثمّ أمر المغنّين فغنّوا له بها.	

وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب! وكان يزيد صاحب جوارح وكلاب، وفهود وقروود! وكان له قرد يكنّيه بأبي قيس! يحضره مجلس منادته وي طرح له متكناً! وكان قرداً خبيثاً، وكان يحمله على أتان وحشيّة قد ريّضت وذلّت لذلك بسرّج ولجام، ويسابق بها الخيل يوم

١. تاريخ الخلفاء: ٢٤٨.

٢. المصدر السابق: ٢٤٧.

٣. أنساب الأشراف ٣: ٢٢٦-٢٢٧، ح ٢٢٧.

حلبة السباق، وكان يُلبس قرده أبا قيس قباء مشمراً من الحرير الأحمر والأصفر، ويجعل على رأسه قلنسوة بشقائق من الحرير ذات ألوان، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمّع بألوان، فسبق يوماً على الخيل فتناول قصب السباق ودخل في الحجرة، فقال في ذلك اليوم بعض شعراء الشام:

تمسّك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضمان!

ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياذ أمير المؤمنين! أتان^١

ومع هذا لم يعدم من تملّق له فنقل لعمر بن عبد العزيز قولاً عن يزيد ولقّبه بأمير المؤمنين! فأنكر عليه عمر وقال له: أتقول له أمير المؤمنين؟! ثم أمر أن يضرب عشرين سوطاً! فضرب^٢.

يزيد، وبنو زياد:

إزداد زياد من الأزواج والأولاد، فقد ذكروا له أكثر من أربعين: أكثر من عشرين بنتاً وعشرين ابناً^٣ عبيدُ الله على العراقيين، وأخوه عبد الرحمان على خراسان، وأخوه عبّاد على سجستان في ثغر البلاد. وقد عرفنا تولية عبيد الله البصرة لمّا وفد على معاوية، فاليوم وفد أخوه سلم على يزيد بعد قتل الحسين عليه السلام، وهو ابن أربع وعشرين سنة، وكانّ يزيد أحبّ أن يلقي بأسهم بينهم فقال له: أوّليك عمل أخويك عبد الرحمان وعبّاد؟ فقال: ما أحبّ أمير المؤمنين! فولّاه خراسان وسجستان.

١. مروج الذهب ٣: ٦٧-٦٨.

٢. تاريخ الخلفاء: ٢٤٨-٢٤٩.

٣. المعارف لابن قتيبة: ٣٤٧.

وكان ابن زياد كآئه عاد من الشام بعد الكوفة إلى البصرة، فقدم عليه أخوه سلم بكتاب يزيد إليه بنخبة ألفي رجل - إلى ستة آلاف - لسلم، فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان لديوانه، خلقاً كثيراً من فرسان البصرة وأشرافهم. ووجه أخاه يزيد ابن زياد إلى سجستان، وكان عبيد الله يحبّ عبّاداً، فكتب إليه يخبره بولاية سلم، فقسّم عبّاد ما في بيت ماله وخرج من سجستان، وخرج منها إلى جيرفت ثم إلى فارس حتّى قدم على يزيد بن معاوية وأخبره بتقسيمه ما أصاب بين الناس، فلم يؤاخذه!

وتجهّز سلم وسار إلى خراسان، فأخذ الحارث بن قيس السلمي عامل أخيه عبد الرحمان بن زياد وأقامه في سراويله يطالبه بالمال! وكان عمّال خراسان إذا دخل الشتاء عادوا من مغازيهم إلى بلدة مرو، ويجتمع ملوك خراسان في بلد من بلاد خوارزم، وكان مع سلم المهلب بن أبي صفرة، فسأله أن يوجّهه إليهم، فوجّهه في أربعة آلاف، فحاصروهم وصالحهم على ثيف وعشرين ألف ألف، فبلغ قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فاصطفى سلم منه ما أعجبه وبعث بعمدته مع مرزبان مروفي وفد إلى يزيد بالشام، ثم عبر إلى سمرقند فصالحه أهلها!

ولعلّه لهذا قال الأصوص الشاعر في تملك يزيد وانقياد الناس لملكه وتجبره:

مَلِكٌ تدين له الملوك، مبارك!	كادت لهيبته الجبال تزول ^١
تُجَبّى له بلخ، ودجلة كلّها	وله الفرات وما سقى، والنيل ^٢

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٧١ - ٤٧٤.

٢. مروج الذهب ٣: ٦٨.

وفي اليعقوبي: ولّى يزيد: سلم بن زياد خراسان فصار إليها ومعه عدّة من أشراف (البصرة) وأقام بنيسابور ثمّ صار إلى خوارزم ففتحها، ثمّ صار إلى بخارى.

وكان ملكهم امرأة تُدعى خاتون، فلمّا رأت كثرة جمع سلم هالها ذلك، فكتبت إلى ملك السغد طرخون: أقبل إليّ لتملك بخارى وتزوّجني! فأقبل إليها في مائة وعشرين ألفاً، فلمّا بلغ سلم بن زياد إقبال طرخون وجّه المهلب بن أبي صفرة طليعة له، فخرج إليهم، فلمّا أشرفوا على عسكر طرخون زحف أصحاب طرخون إليهم والتحم القتال، فرشقهم المسلمون بالنبال فأصابوا طرخون فقتل وانهزموا فقتل منهم كثير، وغنم المسلمون كثيراً، حتّى بلغت سهامهم للفارس ألفين وأربعمائة، وللراجل ألفاً ومائتين.

ولم يزل سلم بخراسان حتّى بلغه موت يزيد (في ٦٤ هـ)، فكتبه حتّى ذاع، فاستخلف على خراسان عبد الله بن خازم السلمي وعاد، وأقام ابن خازم بخراسان يفعل الأعاجيب! وسار سليمان إلى هراة، ووثب أوس بن ثعلبة بالطالقان يحاربهم وينتصر عليهم^١.

إجلاء زينب ووفاتها

لمّا عادت زينب بنت عليّ عليه السلام إلى المدينة من الشام مع النساء والأيتام، كانت تؤلّب الناس بالمدينة على القيام بأخذ ثار الحسين عليه السلام فلمّا بدأ ابن الزبير بمكّة بحمل الناس على خلع يزيد والأخذ بثار الحسين عليه السلام وبلغ ذلك إلى أهل المدينة، أخذت زينب تخطبهم وتؤلّبهم على القيام بأخذ الثار، وبلغ ذلك عمرو بن سعيد الأشدق، فثارت فتنة بينها وبين الأشدق والي المدينة من قبل

١. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٢.

يزيد، فكتب إلى يزيد يعلمه بالخبر ويشير عليه بنقلها من المدينة. فكتب يزيد إليه أن فرق بينها وبينهم.

فأمر الأشدق أن ينادى عليها بالخروج من المدينة إلى حيث تشاء!
فأبت زينب وقالت: قد علم الله ما صار إلينا: قُتل خيرنا، وسقنا كما تساق الأنعام! وحملنا على الأقتاب! فوالله لا خرجنا وإن أهرقت دماؤنا!
فاجتمع إليها نساء بني هاشم وتلطفن معها في الكلام وواسينها، وكلمتها منهن زينب بنت عقيل بن أبي طالب، قالت لها: يا ابنة عمّاه! قد صدّقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوا منها حيث نشاء، فطبي نفسي وأقرّي عيناً، وسيجزي الله الظالمين! أتريدين هواناً بعد هذا! فاجلي إلى بلد آمن (?) وواست معها للخروج والجلاء ابنتا أخيها الحسين عليه السلام: سكينه وفاطمة.

فجهّز الأشدق لها ولمن أراد السفر معها من نساء بني هاشم، وتعيّن المصير إلى مصر. ولم يورّخ لخروجها وإنما جاء: فقدمت (الفسطاط - القاهرة القديمة) لأيام بقين من ذي الحجة الحرام لآخر عام إحدى وستين، وسيأتي عزل الأشدق لهلال ذي الحجة فيعلم أن إخراجها كان قبله.

وروى العبدلي الأعرجي الحسيني (م ٢٧٧ هـ) بسنده عن رقية بنت عقبة ابن نافع الفهري أنها كانت فيمن استقبل زينباً عليها السلام لما قدمت مصر، فتقدّم إليها مسلمة بن مخلد الأنصاري الخزرجي (قاتل ابن أبي بكر) وعبد الله بن الحارث وأبو عميرة المزني، وعزّاها مسلمة وبكى فبكت وبكى الحاضرون وتلت قوله سبحانه: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾^١ ثم احتملها مسلمة الوالي إلى داره بالحمراء القصوى. فأقامت به أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ثم توفيت، وصلى عليها مسلمة بن مخلد في جمع بالجامع، وكانت قد أوصت أن

يدفنها في مخدعها من دار مسلمة، ونفّذ مسلمة الوصيّة فرجعوا بها حتّى دفنوها بمخدعها من الدار بالحمراء القصوى، بوصيّتها، حيث بساتين عبد الله بن عبد الرحمان بن عوف الزهري.

وكان وفاتها عشية يوم الأحد لخمسّة عشر يوماً مضت من رجب سنة (٦٢) من الهجرة^١.

الوليد وعمر بن سعيد:

ثمّ إنّ الوليد بن عتبة وناساً معه من بني أميّة قالوا ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير، فلموسم الحجّ لسنة إحدى وستين عيّن يزيد الوليد بن عتبة فحجّ ولم يتّبعه فيه ابن الزبير وأصحابه ونجدة الحنفي وأصحابه. ورجع من الحجّ إلى المدينة وخرج عمرو بن سعيد بعد ليلتين منها، وكان مواليه وغلماؤه نحواً من ثلاثمئة رجل! فأخذهم الوليد وحبسهم وأبى أن يخلّيهم! فبعث عمرو رسولاً إلى المدينة بأموال ليشتري لكلّ رجل منهم جملاً وأداة وحقيبة فينيخ الجمال في السوق ثمّ يخبرهم فيكسروا باب سجنهم ويركبوا الجمال إلى عمرو، ففعل رسوله ذلك وخرجوا إليه، فخرج بهم إلى يزيد في الشام، واعتذر إليه فقبل عذره^٢.

١. كذا في النسخة، والصحيح: (٦٣ هـ) وفقاً لما مرّ من تاريخي قدومها الفسطاط وإقامتها بها، والأخبار عن رسالة أخبار الزينيات للعبيدلي النسابة، المنشورة ضمن كتاب السيّد زينب لحسن محمّد قاسم، ط. المنيرية: ٢١-٢٢، وفاتها كان قبل وقعة الحرّة، كما يأتي، وانظر ترجمة مسلمة في قاموس الرجال ١٠: ٧٢/٧٥٤٧.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٧٧-٤٧٩.

يزيد، وابن عباس

عرفنا بيعة ابن عباس ليزيد^١ فلعل ذلك هو الذي أطمع ابن الزبير فيها منه ولا سيما بعد مقتل الحسين عليه السلام، فأرسل إليه: أنا أولى من يزيد الفاسق الفاجر وقد علمت سيرته وسوابق معاوية، وعلمت سيرتي وسوابق أبي الزبير مع رسول الله! ودعاه إلى بيعته. فقال ابن عباس: ما لي ولهذا وإنما أنا رجل من المسلمين، والفتنة قائمة وباب الدماء مفتوح! وامتنع عليه.

وبلغ ذلك إلى يزيد فكتب إليه: أما بعد؛ فقد بلغني أن الملحدين في حرم الله دعاك لتبايعه فأبيت عليه وفاء منك لنا! فانظر من بحضرتك من أهل بيتك ومن يرد عليك من البلاد فأعلمهم حسن رأيك فينا وفي ابن الزبير! وأن ابن الزبير إنما دعاك إلى طاعته والدخول في بيعته لتكون له على الباطل ظهيراً وفي المأثم شريكاً! وقد اعتصمت ببيعتنا طاعة منك لنا ولما تعرف من حقنا! فجزاك الله من ذي رحم خير ما جرى به الواصلين أرحامهم والموفين بعهدهم! فما أنسى من الأشياء فما أنا بناس برّك وتعجيل صلتك بالذي أنت أهله! فانظر من يطلع عليك من الآفاق فحذّرهم زخارف ابن الزبير وجنبهم لقلقة لسانه! فإنهم منك أسمع ولك أطوع، والسلام^٢.

١. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٣.

٢. تذكرة الخواص ٢: ٢٣٧ عن ابن إسحاق! والواقدي والكلبي، وفي مقتل الخوارزمي ٢: ٧٧، مسنداً عن الأعمش.

جواب ابن عباس ليزيد

فكتب إليه ابن عباس: من عبد الله بن عباس إلى يزيد بن معاوية. أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر دعاء ابن الزبير إتيّاي إلى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته. فإن يك ذلك كما بلغك، فلست أردت حمدك ولا ودّك، والله بما أنوي عليم.

وزعمت أنك لست بناس ودي! فلعمري ما تؤتينا ممّا في يدك من حقنا إلا القليل، وإنك لتحبس عنا منه العريض الطويل.

وسألتني أن أحثّ الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير. فلا، ولا سرورا ولا حبورا! وأنت قتلت الحسين بن علي، بفيك الكثكث ولك الأثلب^١، إنك - إن تمنك نفسك ذلك - لعازب الرأي! وإنك لأنت المفند المتهور! لا تحسبني - لا أباً لك - نسيت قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطلب: مصابيح الدجى ونجوم الأعلام، غادرهم جنودك مصرّعين في صعيد، مرمّلين بالتراب، مسلوبين بالعراء لا مكفّنين، تسقى عليهم الرياح، وتعاورهم الذئاب، وتنشي بهم عرج الضباع! حتّى أتاح الله لهم أقواماً لم يشتركوا في دمائهم، فأجنّوهم (ستروهم) في أكفانهم، وبني - والله - وبهم عززت وجلست مجلسك الذي جلست يا يزيد!

وما أنسى من الأشياء فلست بناس تسليطك عليهم الدّعيّ العاهر ابن العاهر، البعيد رحماً، اللئيم أباً وأمّاً، الذي في ادّعاء أبيك إياه ما اكتسب أبوك به إلا العار والخزي والمذلة في الآخرة والأولى، وفي الممات والمحيّا؛ فإنّ نبيّ الله قال: «الولد للفرّاش وللعاهر الحَجَر» فألحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف النقيّ ولده الرشيد! وقد أمات أبوك السّنة جهلاً، وأحيا البدع والأحداث المضلّة عمداً!

١. الكثكث: التراب، والإثلب كذلك.

وما أنسى من الأشياء فلست بناسٍ أطرادك الحسين بن عليٍّ من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقب، وقد كان أعزَّ أهل البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزَّ أهلها بها حديثاً، وأطوع أهل الحرمين بالحرمين لو تبوأ بها مقاما واستحل بها قتالاً، ولكن كره أن يكون هو الذي يستحل حرمة البيت وحرمة الحرم، فأكبر من ذلك ما لم تُكبر حيث دسست إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يُكبر ابن الزبير، حيث ألحد بالبيت الحرام، وعرضه للعائر وأراقل العالم، وأنت - لانت - المستحل فيما أظنّ بل لا شكّ فيه: إنك للمحرّف العريف، فإنك حليف نسوة وصاحب ملاه! فلمّا رأى (الحسين) سوء رأيك شخص إلى العراق ولم يبتغك ضرباً! وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثمّ إنك الكاتب إلى ابن مرجانة أن يستقبل حسيناً بالرجال، وأمرته بمعاجلته وترك مطاولته، والإلحاح عليه حتّى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب: أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً! فنحن أولئك، لسنا كآبائك الأجلاف الجفاة الأكباد، الحمير.

ثمّ طلب الحسين بن عليٍّ إليه (ابن مرجانة) المودعة والرجعة، فاغتنمت قلّة أنصاره واستئصال أهل بيته، فعدوتم عليهم، فقتلوهم كأنما قتلوا أهل بيت من الترك والكفر!

فلا شيء أعجب عندي من طلبك ودّي ونصري وقد قتلت بني أبي وسيفك يقطر من دمي، وأنت مأخذ ثأري، فإن يشأ الله لا يطلّ لديك دمي ولا تسبقني بثأري، وإن سبقتنني به في الدنيا فقبلنا ما قتل النبيون وآل النبيين، وكان الله الموعود، وكفى به للمظلومين ناصراً ومن الظالمين منتقماً، فلا يعجبك إن ظفرت بنا اليوم فوالله لنظفرنّ بك يوماً!

وأما ما ذكرت من وفائي وما زعمت من حقّي؛ فإن يك ذلك كذلك فقد والله بايعت أباك وإني لأعلم أنّ ابني عمّي (الحسين) وجميع بني أبي أحقّ بهذا

الأمر من أبيك! ولكنكم - معاشر قريش - كاثرتمونا فاستأثرتم علينا سلطاننا
ودفعتمونا عن حقنا، فبعداً لمن تحرّى ظلمنا واستغوى السفهاء علينا وتولّى الأمر
دوننا، بعداً لهم كما بعدت ثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ومكذبوا المرسلين.
ألا ومن أعجب العجب - وما عشت أراك الدهر العجيب - حملك بنات
عبد المطلب وغلمة صغاراً من ولده إليك بالشام، كالسبي المجلوب! تري الناس
أنك قهرتنا وأنت تمنّ علينا! ولعمري لئن كنت تصبح وتمسي آمنّا من جرح
يدي إني لارجو أن يعظم جراحك بلساني ونقضي وإبرامي، فلا يستمرّ بك
الجدل (الفرح) ولا يمهلك الله بعد قتلك عترة رسول الله إلا قليلاً حتّى يأخذك
أخذاً أليماً فيخرجك الله من الدنيا ذميماً أثيماً! فعش لا أبالك! فقد - والله - أرداك
عند الله ما اقترفت! والسلام على من أطاع الله^١.

وزاد السبط عن الواقدي، قال: فلمّا قرأ كتابه يزيد أخذته العزّة بالإثم وهمّ
بقتل ابن عبّاس، ولكنّه شغله عنه أمر ابن الزبير^٢.

١ . تاريخ يعقوبي ٢: ٢٤٨ - ٢٥٠، وأسنده في مقتل الخوارزمي ٢: ٧٧ - ٧٩، وبسنده في بحار الأنوار
٤٥: ٣٢٣ - ٣٢٥.

٢ . تذكرة الخواص ٢: ٢٣٧ - ٢٤٠. وسيأتي ما يدلّ على بيعة ابن عبّاس لابن الزبير!

يزيد، وابن الحنفية

وطمع يزيد بعد اليأس من ابن عباس في محمد بن الحنفية، وكان بالمدينة، فكتب إليه:

أما بعد، فإني أسأل الله لي ولك عملاً صالحاً يرضى به عنا! فإني ما أعرف اليوم في بني هاشم رجلاً هو أرجح منك علماً وحلماً! ولا أحضر منك فهماً وحكماً، ولا أبعد منك عن كل سفه ودنس وطيش! وليس من يتخلق بالخير تخلقاً وينتحل بالخير تنحلاً كمن جبله الله على الخير جبلاً، وقد عرفنا ذلك كله منك قديماً وحديثاً شاهداً وغائباً.

غير أنني قد أحببت زيارتك والأخذ بالحظ من رويتك! فإذا نظرت في كتابي هذا فأقبل إليّ آمناً مطمئناً. أرشدك الله أمرك، وغفر لك ذنبك! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^١.

وكان لابن الحنفية عشرة بنين^٢ لم يحضر أحد منهم مع عمهم الحسين عليه السلام! سمى أحدهم باسم جده لأمه جعفر، والآخر عبد الله. فلما جاءه الكتاب وقرأه استشارهما في ذلك.

فقال له ابنه جعفر: يا أبة! إنه قد طمأنك وأطفك في كتابه إليك! ولا أظنه يكتب إلى أحد من قريش بأن «أرشدك الله أمرك وغفر ذنبك» فأنا أرجو أن يكف الله شره عنك.

١. مقتل الخواريزمي ٢: ٧٩.

٢. المعارف لابن قتيبة: ٢١٦.

فسار ابن الحنفية (بينه) حتّى قدم الشام على يزيد، فلمّا استأذن أذن له وقربه وأدناه حتّى أجلسه معه على سرير، ثمّ أقبل عليه بوجهه وقال له: يا أبا القاسم؛ آجرك الله وإياك في أبي عبد الله الحسين! فوالله لئن كان أوجعك فقد أوجعني! ولو كنت أنا المتولّي لحربه لما قتلته بل لدفعت القتل عنه ولو بجزّ أصابعي وذهاب بصري! ولقديته بجميع ما ملكت يدي! وإن كان نازعني حقّي وقطع رحمي وظلمني! ولكن عبيد الله بن زياد لم يعلم رأيي فيه من ذلك فعجل عليه وقتله ولم يستدرك ما فات! وبعد فإنّه لم يكن يجب (يجوز!) على أخيك أن ينازعنا في أمر خصّنا الله به دون غيرنا! وليس يجب علينا أن نرضى بالدنيّة في حقّنا! وعزيز عليّ ما ناله! وهات ما عندك الآن يا أبا القاسم!

فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: قد سمعت كلامك، ورحم الله حسيناً وبارك الله له فيما صار إليه من ثواب ربّه والخلد الدائم الطويل في جوار المَلِك الجليل. وقد علمنا أنّ ما عرانا من طرح فقد عراك وأنّ ما نقصنا فقد نقصك! وكذا أظنّ أن لو شهدت ذلك بنفسك لاخترت أفضل الرأي والعمل! ولجانبت أسوأ الفعل والخطل!

والآن فإنّ حاجتي إليك ألا تسمعني فيه ما أكره؛ فإنّه ابن أبي وأخي وشقيقي؛ وإن زعمت أنّه كان عدوّاً لك وظالمك كما تقول! فقال له يزيد: فإنّك لا تسمع منّي فيه إلا خيراً، ولكن هلمّ فبايعني! ثمّ اذكر ما عليك من الدّين حتى أقضيه لك!

فقال محمّد: أمّا البيعة فقد بايعتك! وأمّا ما ذكرت من أمر الدّين فما عليّ بحمد الله دين، فإنّي من الله تبارك وتعالى في كلّ نعمة سابغة لا أقوم بشكرها! وكان خالد بن يزيد بن معاوية عند أبيه فالتفت يزيد إليه وقال له: يا بني! إنّ ابن عمّك هذا! بعيد من الدنس والخبّ واللّؤم والكذب، ولو كان غيره كبعض من عرفت لقال: عليّ من الدّين كذا وكذا، ليستغنم أخذ أموالنا! ثمّ أقبل يزيد على ابن الحنفية وقال له: بايعتني يا أبا القاسم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: فإنّي أمرت لك بثلاثمائة ألف درهم! فقال محمّد: لا حاجة لي في هذا المال ولا

جئت له! فقال يزيد: لا عليك أن تقبضه فتفرقه فيمن أحببت من أهل بيتك! قال:
قد قبلته يا أمير المؤمنين^١!

وفد المدينة عند يزيد

وفي موسم الحج لسنة اثنتين وستين حج بالناس الوليد بن عتبة^٢ وكان
يماكره ابن الزبير فمكر به وكتب إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرج، لا يتجه
لأمر رشد، ولا يرعوي لعظة الحكيم! ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين
الكتف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها! وأن يجتمع ما تفرق، فانظر
في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله، والسلام.

فدعا يزيد ابن عمه الآخر: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وبعث به إلى
المدينة وعزل عنها الوليد، وكان عثمان فتى لم يحنكه السن ولم يجرب الأمور
حدثاً غراً.

فدعا عثمان بن محمد رجلاً كثيرين من الأشراف فيهم عبد الله بن حنظلة
الغسيل الأنصاري، والمنذر بن الزبير، وعبد الله بن أبي عمرو المخزومي، وبعث
بهم وفداً إلى يزيد^٣، وزاد الخوارزمي: عبد الله بن عمر، فأقاموا عنده أياماً، وقد
أنزل ابن الحنفية في بعض منازلهم، ويلتقي بهم صباحاً ومساءً، وأجاز كل واحد
منهم بخمسين ألف درهم! والمنذر بن الزبير بمائة ألف!

١. مقتل الخوارزمي ٢: ٨٠-٨١.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٨١.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٧٩-٤٨٠ عن أبي مخنف.

فلما أرادوا الانصراف استأذنه ابن الحنفية ليكون معهم، فوصله بمائتي ألف درهم مع عروض بمائة ألف أخرى وقال له: كنت أحبّ ألا تفارقني وتأمرني بما فيه حظّي ورشدي! واللّه ما أحبّ أن تنصرف عني وأنت ذامّ لشيء من أخلاقي؟ فقال له محمّد: أمّا ما كان منك إلى الحسين عليه السلام فذلك شيء لا يستدرك! وأمّا الآن ... فلو رأيت منك خصلة أكرهها لما وسعني السكوت دون أن أنهاك عنها واخبرك بما يحقّ لله عليك منها (وذلك) للذي أخذ الله تبارك وتعالى على العلماء في علمهم أن يبينوه للناس ولا يكتموه ... فأنا أنهاك عن شرب هذا المسكر! فإنّه رجس من عمل الشيطان! وليس من ولي أمور الأمة ودعي له بالخلافة فوق المنابر على رؤوس الأشهاد كغيره من الناس! فاتّق الله في نفسك، وتدارك ما سلف من ذنبك!

فقال له يزيد: فإنّي قابل منك ما أمرتني به! ثمّ ودّعه وخرج معهم إلى المدينة ففرّق كلّ ذلك المال في الرجال والنساء والذريّة والموالي من بني هاشم وقريش، ثمّ خرج إلى مكّة مجاوراً^١ محاذراً أمرهم.

وزاد الطبري قال: ولمّا عاد الوفد إلى المدينة قالوا لهم: إنّنا قدمنا من عند رجل لا دين له، يشرب الخمر ويعزف بالطناير ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان! فنحن نشهدكم أنّا قد خلعناه!

وكان المنذر بن الزبير صديقاً لابن زياد، فقدم عليه بالبصرة، فلما بلغ يزيد أمر أصحابه بالمدينة كتب إلى ابن زياد بحبس المنذر، فأنذره ابن زياد فخرج إلى المدينة وأخذ يقول لهم: واللّه لقد أجازني يزيد بمائة ألف درهم ولا

يمنعني ذلك أن أخبركم خبره صادقاً: والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة! فاشتدّ عليه أكثر من أصحابه.

فدعا يزيد النعمان بن بشير الأنصاري وقال له: إنّ بالمدينة من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في فتنهم فيهلك، وقومك (الأنصار) إنّ لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي! فاذهب إليهم وفترهم عما يريدون. فجاءهم النعمان ودعاهم إلى لزوم الطاعة والجماعة وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام! فعصاه الناس فانصرف عنهم^١ إلى الشام.

مقدمات واقعة الحرّة^١

تمرد أهل المدينة على يزيد

وكان معاوية قد اكتسب أموالاً ونخيلاً بالمدينة، وعليها قيّم يجبيها لهم يدعى ابن ميثاء، وكانت له نوق وجمال لذلك في حرّة المدينة، فأقبل بها يريد جباية الأموال ليزيد، وكانت نخيلاً يجذّ منها كل سنة مائة وستين ألف وسق تمرًا!

فاجتمع نفر من قريش والأنصار ودخلوا على عثمان بن محمّد فقالوا له: إنّ معاوية آثر علينا في عطائنا فلم يعطنا درهماً فما فوقه قطّ! حتّى مضى الزمان ونالتنا المجاعة! فاشترى منا أموالنا بجزء من مائة من ثمنها! فهذه الأموال كلّها لنا!

فقال لهم عثمان: لأكتبنّ إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم وما أنتم عليه من الضغون القديمة والأحقاد التي لم تزل في صدوركم! ففرّقوا عنه، ثمّ اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيّم عليها. فكتب عثمان بن محمّد بأمرهم إلى يزيد.

فكتب يزيد كتاباً خطاباً لأهل المدينة وأمر عثمان بن محمّد أن يقرأه عليهم فقرأه فإذا فيه:

«وأيّم الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي فلاطأنكم وطأة أقلّ منها عددكم، وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود! فلا أفلح من ندم!

١ . الحرّة، مخفّف الحارة، أي الحجارة الحارّة كأنها أحرقت بالنار، وهي هنا الحرّة الشرقية من حرّتي المدينة، كما في المعجم ٢: ٢٨٣.

فلما قرئ الكتاب على أهل المدينة بدر عبد الله بن المطيع العدوي القرشي بكلام قبيح وأيده رجال آخرون.

وأمل يزيد في وساطة عبد الله بن جعفر وكان عنده، فأرسل إليه وقال له: إن ابن الزبير حيث علمت من مكة، وهو زعم أنه قد نصب الحرب، فأنا أبعث جيوشاً وأمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقاً، فإن نزعوا عن غيهم وضلالهم وأقرّوا بالطاعة فلهم عليّ عهد الله وميثاقه أنّ لهم في كلّ عام عطاءين: عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف، ما لا أفعله لأحد من الناس طول حياتي؛ ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا! والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ أن أخرجهم لهم وافراً كاملاً! فإن قبلوا ذلك وأنا بوا جاوزهم إلى ابن الزبير، وإن أبوا قاتلهم، ثمّ إن ظفر بها أنهبها ثلاثاً!

فروى ابن قتيبة عن ابن جعفر، قال: فرجعت إلى منزلي ليلاً وكتبت إليهم كتاباً أعلمهم فيه بقول يزيد وأحضّهم على القبول بما بذله لهم، وأنهاهم أن يتعرّضوا لجيوشه! وسلّمت الكتاب لرسولي وطلبت إليه أن يجهد السير إليهم، فوصل إليهم في عشرة أيّام، فما قبلوه^١.

نفي بني أميّة من المدينة

قال ابن قتيبة: فلما استبان لهم أنّ يزيد سيعث إليهم بجيوشه اتّفقوا على تمرّدهم واختلفوا في رياستهم، فمنهم من قال: ابن مطيع، وقائل: إبراهيم بن نعيم، ثمّ اجتمعوا على عبد الله بن حنظلة فبايعوه^٢. وكان له ثمانية بنين كانوا معه

١. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٦-٢٠٧، ونسب عثمان بن محمّد بالثقف، بل هو ابن أبي سفيان الأموي.

وسمّى يعقوبي عامل صوافي معاوية في المدينة: ابن مينا ٢: ٢٥٠ مصحف.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٧.

في وفودهم على يزيد، فأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم وأعطى أباه مائة ألف، فلمّا عاد وسأله الناس ما وراءك؟ قال لهم: أتيتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم! فقالوا: فقد بلغنا أنّه أكرمك وأعطاك! قال: أجل قد فعل ولكني ما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه^١. فلمّا بايعوه للخروج على يزيد قال لهم: واللّه ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء! إنّهُ رجل ينكح أمّهات الأولاد (أي أمّهات أولاد أبيه!) والأخوات والبنات! ويشرب الخمر حتّى يدع الصلاة^٢.

وكان ابن زياد لمّا قتل الحسين عليه السلام قالت له أمّه مرجانة: ويلك ماذا ركبت وماذا صنعت! فلمّا كتب يزيد إليه أن يغزو مكّة أبى عليه وقال: لا أجمعهما للفاسق أبداً! أقتل ابن بنت رسول الله وأغزو البيت^٣! ولعلّه كان قد بلغه إلقاء يزيد عليه قتله عليه السلام.

وتأهّب أهل المدينة لإخراج الأمويين منها، وبلغهم ذلك فاجتمعوا إلى مروان بن الحكم وقالوا له: يا أبا عبد الملك! ما الرأي؟ فقال لهم: إنّما الخوف على الحرّيم فمن يقدر منكم أن يغيب حرّيمه فليفعل! وبلغه أنّ عبد الله بن عمر يريد الخروج إلى مكّة ليغيب عن أمرهم هذا، فأتاه وقال له: احبّ أن أوجّه عيالي معك، وهي عائشة بنت عثمان بن عفّان. فقال: إنّني لا أقدر على مصاحبة النساء!

قال: فاجعلهم مع حرمك في منزلك! قال: فلا آمن أن يدخل على حرّيمي لمكانكم معهم^٤!

١. تاريخ خليفة: ١٤٨ ولم يذكر وصفهم ليزيد!

٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٤٩ عن الواقدي بطرق، وصحف بطرف!

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٣ - ٤٨٤.

٤. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨.

وروى الطبري عن الواقدي نحوه وقال: فلجأ إلى علي بن الحسين عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن! إن لي رحماً! فتكون حرمي مع حرمك؟! قال: افعل! فبعث بحرمه إلى علي بن الحسين، فخرج بحرمه وحرم مروان إلى ينبع، فكان مروان شاكراً ذلك له^١. ثم وثب أهل المدينة على واليهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن كان معهم من قريش، فأخرجوهم حتى أنزلوهم دار مروان بن الحكم وكانوا نحو ألف رجل! وحاصروهم حصاراً ضعيفاً^٢، وذلك ليخرجوهم من المدينة. فقالوا: نحن نريد الشام فالشقة بعيدة ولنا عيال وصبية ولا بد لنا ممّا يصلحنا. فاستنظروهم عشرة أيام، فأنظروا. ثم أخرجوا كبراءهم إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وآله فحلفوهم^٣. قالوا لهم: واللّه لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة ولا تدلّوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدوّاً، فنكفّ عنكم ونخرجكم عنا. فأعطوهم عهد الله وميثاقه^٤، وشرطوا عليهم أن يخرجوا فيقيموا عشرة أيام بذي خشب. فأخرجوهم من المدينة، وتبعهم السفهاء والصبيان يرمونهم بالحجارة حتى انتهوا إلى ذي خشب^٥. فبعث مروان إلى حبيب بن كرة وكتب كتاباً إلى يزيد وسلّمه إلى ابنه عبد الملك فخرج مع ابن كرة إلى ثنية الوداع فسلم الكتاب إليه وقال له: قد أجلتك اثنتي عشرة ليلة ذاهباً واثنتي عشرة ليلة مقبلاً، فوافني لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان في هذه الساعة تجدني جالسا أنتظر.

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٥ وقال: وكانت بينهما صداقة قديمة! بل الصحيح: عداوة قديمة.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٢.

٣. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨.

٤. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٥ عن الكلبي عن الأزدي عن ابن كرة الأموي.

٥. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٨، موسوعة التاريخ الإسلامي ٦: ٢٤٠.

قال ابن كَرّة: أخذت الكتاب ومضيت به حتّى دخلت به على يزيد وهو على كرسيه وقدماه في ماء في طست من وجع النقرس، فقرأه فإذا فيه: أمّا بعد، فإنه قد حصرنا في دار مروان، ورمينا بالجبوب (الأرض الغليظة) ومنعنا العذب! فيا غوثاه يا غوثاه! فلمّا قرأه قال لي: أما يكون بنو أميّة ومواليهم ألف رجل؟ قلت: بلى وأكثر! قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! قلت: أجمع الناس كلّهم عليهم فلم يكن لهم طاقة على الناس^١.

جيش الشام إلى المدينة

فبعث يزيد- بعد إباء ابن زياد- إلى عمرو بن سعيد الأشدق وكان في الشام فأقرأه الكتاب، وطلب إليه أن يسير بالناس إليهم، فقال: إنّما هي دماء قریش فلا أحبّ أن أتولّى أنا ذلك.

فروى الطبري عن حبيب بن كرتة قال: فبعثني يزيد بالكتاب إلى مسلم بن عقبة المرّي القرشي (في فلسطين) فسلمت الكتاب إليه وهو شيخ كبير مريض، فقرأه وأخبرته الخبر فجاء حتّى دخل على يزيد.

فقال له: ويحك! إنّ لا خير في العيش بعدهم، فاخرج وسر بالناس. فخرج مناديه ينادي: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كاملة، ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل فوراً! فانتدب له اثنا عشر ألف رجل^١. وخرج يزيد وخطب فقال: يا أهل الشام! إنّ أهل المدينة أخرجوا قومنا منها، والله لئن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إليّ من ذلك^٢. وأمر بقبة ضربت له خارج قصره، وقطع البعوث على أهل الشام، فلم تمض أيام ثلاثة حتّى فرغ، وعرضت الكتائب عليه في اليوم الثالث^٣.

وخرج مسلم وهو أعور فاستعرض الجنود، فلم يُخرج معه أصغر من ابن عشرين ولا أكبر من ابن خمسين، على خيل عراب وأدوات كاملة، ووجّه يزيد معه عشرة آلاف بعير تحمل زاده.

وخرج إليه يزيد يودّعه فقال له: إن شئت أعفيتك، فإنّي أراك مدنفاً منهو كاً! فقال الأعور: نشدتك الله ألا تحرمني أجراً ساقه الله إليّ! أوتبعث غيري!

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٣.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٩ و ٢: ٩.

٣. تاريخ خليفة: ١٤٨، ولم يذكر وصايا يزيد للمسرف المرّي!

فقال يزيد: فإن حدث بك حدث فأمر الجيوش إلى الحصين بن نمير السكوني، فانهض بسم الله إلى ابن الزبير، واتخذ المدينة طريقاً إليه، فإن صدوك فاقتل من ظفرت به منهم، وأنهبها ثلاثاً... فإذا قدمت المدينة فمن عاقلك عن دخولها أو نصب لك الحرب فالسيف السيف، أجهز على جريحهم وأتبع مدبرهم وإياك أن تبقي عليهم! وإن لم يتعرّضوا لك فامض إلى ابن الزبير^١.

فأمره بقتال أهل المدينة، فإن ظفر بها أباحها للجند ثلاثة أيام يسفكون فيها الدماء ويأخذون أموالهم، وأن يبايعهم على أنهم خول وعبيد ليزيد^٢، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس. وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وأذن مجلسه، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه^٣.

وقال اليعقوبي: كان جيشه خمسة آلاف رجل: من فلسطين ألف رجل عليهم روح بن زنباع الجذامي، ومن الأردن ألف رجل عليهم حبيش بن دلجة القيني، ومن دمشق ألف رجل عليهم عبد الله بن مسعدة الفزاري، ومن أهل حمص ألف رجل عليهم الحصين بن نمير السكوني، ومن قنسرين ألف رجل عليهم زفر بن الحارث الكلابي^٤.

١. الإمامة والسياسة ١: ٢٠٩، والتنبيه والإشراف: ٢٦٣.

٢. تاريخ ابن الوردي ١: ١٦٥.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٤-٤٨٥ عن الكلبي، عن الأزدي، عن حبيب بن كرة الأموي، وفيه: وقد أتاني كتابه. وانفرد به ولم يذكره غيره.

٤. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١.

لقاء أهل المدينة بالأمويين

ولمّا أيقن أهل المدينة بقدوم الجيوش إليهم، قال بعضهم: لقد خندق رسول الله، فتشاوروا في ذلك وخندقوا المدينة من كل نواحيها^١ أو في جانب منها^٢ وهو خندق النبي، وواصلوا سائرها بالحيطان^٣.

وخرج بنو أمية بأثقالهم حتّى انتهوا إلى وادي القرى قرب خيبر في طريق الشام فالتقوا بجيش مسلم المرّي، وسمع أنّ فيهم عمرو بن عثمان بن عفّان، فدعا به أوّل الناس وقال له: أخبرني خبر ما وراءك وأشر عليّ. فقال عمرو: لقد أخذ علينا العهود والمواثيق ألا ندلّ على عورة ولا نظاهر عدوّاً! فقال المرّي: والله لو لا أنّك ابن عثمان لضربت عنقك! وأيم الله لا أقبلها بعدك قرشياً! وانتهره! فخرج إلى أصحابه وأخبرهم بما لقي عنده.

فدخل عليه عبد الملك بن مروان فقال له: أخبرني خبر الناس وكيف ترى؟ فقال له: أرى أن تسير بمن معك حتّى إذا انتهيت إلى أدنى نخل للمدينة نزلت، حتّى إذا أصبحت وصليت مضيت وتركت المدينة على يسارك ودرت حولها إلى الحرّة في مشرقها فتستدبر المشرق وتستقبل القوم فتشرق الشمس عليهم وبين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها وأذاها، وما دمت مشرّقين فهم يرون من بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم من شيء من سلاحهم ماداموا

١. الإمامة والسياسة ١: ٢١٠.

٢. الطبري ٥: ٤٨٧.

٣. التنبيه والإشراف: ٢٦٣ - ٢٦٤.

مغربين!

ثمّ دخل عليه مروان فأقنعه بولده عبد الملك واقتنع به^١. هذا ما رواه الطبري، وزاد ابن قتيبة، قال:

قال له مروان: عددهم أكثر من الجيش الذي جئت به ولكن فيهم قوم قليل لهم نيّة وبصيرة، وعامتهم ليس لهم نيّات ولا بصائر، ولا بقاء لهم مع السيف، وليس لهم سلاح ولا كراع، ولكنهم قد خندقوا عليهم وحصّنوا! فقال مسلم: ولكننا نردم عليهم خندقهم ونقطع عنهم مشربهم! فلم يرجع منهم مع مسلم غير مروان وابنه عبد الملك، وكان قد أصابه الجدري فخلّقه بذي خشب.

وجمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند المنبر فقال لهم: تبايعوني على الموت! وإلا فلا حاجة في بيعتكم! فبايعوه على الموت، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال لهم: أيّها الناس! إنكم إنما خرجتم غضباً لدينكم، فأبلاوا إلى الله بلاءً حسناً ليوجب لكم به جنته ومغفرته، ويحلّ بكم رضوانه، واستعدّوا بأحسن عدّتكم، وتأهّبوا بأكمل أهبتكم، فقد أخبرت أنّ القوم قد نزلوا بذي خشب ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق (ما أعطاه) عند منبر رسول الله ﷺ. فتصايح الناس بسبه والنيل منه، فرفع عبد الله يديه إلى السماء وقال: اللهمّ إنّنا بك واثقون وعليك متوكّلون، وإليك ألجانا ظهورنا! ونزل. وكان صائماً ولا يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها في غد، ولا يبيت إلا في المسجد الشريف^٢.

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٥-٤٨٦ عن الكلبي، عن الأزدي، عن ابن كروة الأموي.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢١٠-٢١١.

وقعة الحرة

ولمّا انتهى الجيش إلى المدينة عسكر بالحرة^١ وخرج أهلها لحربه وعليهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري الأوسي (على الأنصار) وعبد الله بن المطيع العدوي القرشي (على قریش)^٢.

فلمّا نزل مسلم المرّي أرسل إلى أهل المدينة، قال لهم: إنّ أمير المؤمنين! يقرأ عليكم السلام ويقول لكم:

أنتم الأهل والعشيرة، فاتّقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإنّ لكم عندي في عهد الله وميثاقه عطاءين في كلّ سنة: عطاء في الصيف وعطاء في الشتاء! ولكم عندي عهد الله وميثاقه أن أجعل سعر الحنطة عندكم كسعر الحنطة عندنا (في الشام) وكان عمرو بن سعيد قد أخذ عطاءهم واشترى به لنفسه عبيداً فقال لهم: وأمّا العطاء الذي ذهب به عمرو بن سعيد فعليّ أن أخرجهم لكم! فقالوا له: لقد خلعنا يزيد كما نخلع نعالنا أو عمائمنا^٣.

فقال لهم: يا أهل المدينة! إنّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية! يزعم أنّكم الأهل، فأنا أكره إهراق دمائكم (ولذا) فإنّي أوّجلكم ثلاثاً، فمن ارعوى وراجع الحقّ قبلنا منه، وانصرفت عنكم إلى هذا الملحد الذي بمكة! وإن أبيت كُنّا قد أعذرنا إليكم!

ولمّا مضت الأيام الثلاثة ناداهم: يا أهل المدينة! قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ قالوا: بل نحارب! قال: بل ادخلوا في الطاعة

١. الإمامة والسياسة ١: ٢١١ وصحّف بالجرف!

٢. مروج الذهب ٣: ٦٩.

٣. الإمامة والسياسة ٢: ١٠.

ونجعل حدّنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفسّاق من كلّ أوب!

فقالوا لهم: يا أعداء الله، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتّى نقاتلكم، أنحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام وتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلّوا حرمة! لا والله لا نفعل!

قتال يوم الحرّة

فأقبل مسلم المرّي من الحرّة بجمعه إلى طريق العراق حتّى ضرب فسطاطه هناك، ثمّ أوقف خمسمئة من حاملي الأسنة الرّجالة دونه، وكان له غلام روميّ شجاع كان صاحب رايته. ووجّه بخيله نحو ابن حنظلة، فحمل ابن حنظلة في الرّجال الذين معه عليهم حتّى انتهوا إلى ابن عقبة، فنهض برجاله في وجوهم وصاح بهم فانصرفوا إلى قتال شديد.

وكان مع الفضل بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي عشرون فارساً فقاتل بهم قتالاً شديداً، ثمّ قال لابن حنظلة: مر الفرسان معك ليقفوا معي فإذا حملت فليحملوا فوالله لا أنتهي حتّى أبلغ مسلم المرّي. فأمر ابن حنظلة رجلاً أن ينادي في الخيل بذلك، فنادى فيهم وجمعهم إلى الفضل الهاشمي، فلمّا اجتمعت إليه الخيل حمل بهم على أهل الشام فكشفهم. ثمّ قال لهم: احملوا أخرى، ثمّ حمل وحمل معه أصحابه حتّى بلغوا الخمسمئة الرّجالة جاثنين على ركبهم شارعين أسنتهم نحو القوم، يقدمهم الغلام الروميّ حامل راية ابن عقبة، فمضى الفضل الهاشمي نحو حامل الراية وعلى رأسه المغفر، فكان الفضل يظنّه مسلم المرّي، فضرب بسيفه على مغفره فقطّ المغفر وقلق هامته، ونادى: خذها وأنا ابن عبد المطلب! قتلت طاغية القوم وربّ الكعبة!

وبادر مسلم المرّي فأخذ رايته بيده ونادى أهل الشام بالملام وقال لهم:

شدّوا مع هذه الراية، ثمّ مشى برايته وشدّت رجاله أمامه.

وقال عوانة بن الحكم: بل كان مسلم المرّي لا زال مريضاً على سريره، وأمرهم فحملوه ووضعوه في الصفّ أمام فسطاطه، فلمّا حمل عليه الفضل الهاشمي وأصحابه وانتهوا إلى سريره نادى ابن عقبة: أين أنتم يا بني الحرائر! اشجروه بالرماح، فطعنوه بالرماح حتّى سقط. هذا وبينه وبين أطناب مسلم المرّي نحو من عشرة أذرع، وقتل معه رجال كثير من أهل المدينة فيهم إبراهيم بن نعيم العدوي وزيد بن عبد الرحمان بن عوف.

ثمّ ركب مسلم المرّي فرسه وأخذ يسير في أهل الشام ويحرّضهم، وأمر الخيل أن تقدم على ابن حنظلة، فأقبلت خيل مسلم المرّي ورجاله نحو ابن حنظلة الغسيل ورجاله، فإذا أقدمت الخيل على الرجال ثاروا في وجوههم برماحهم وسيوفهم، فتنفر خيولهم وتحجم. فأمر ابن عقبة الحصين بن نمير السكوني أن ينزل بجنده من أهل حمص، فمشى براياتهم إليهم، ثمّ أمر مسلم المرّي عبد الله الأشعري أن يدنو برماته الخمسمائة نحو ابن حنظلة الغسيل وأصحابه، فأخذوا ينضحونهم بنبالهم.

فنادى ابن الغسيل: من أراد التعجّل إلى الجنّة فليلزم هذه الراية، فقام إليه المستميتون منهم، فاقتتلوا أشدّ قتال ساعة، وأخذ يقدّم بنيه أمامه واحداً فواحداً حتّى قتل ثمانيتهم بين يديه، وهو يقاتلهم بسيفه حتّى قتل هو وأخوه لأمه محمّد بن ثابت ابن قيس بن شماس خطيب الأنصار، ومعهما محمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري.

وانهزم الناس، وأخذ محمّد بن سعد بن أبي وقاص يقاتلهم حتّى غلبت الهزيمة فذهب مع الناس^١.

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٧-٤٩١ عن الكلبي، عن أبي مخنف وغيره.

ولمّا دارت رحا الموت بين الفريقين توارى عبد الله بن المطيع العدوي وسئل عن ذلك فقال: رأيت ما رأيت من غلبة أهل الشام، وصنع بني حارثة الذي صنعوا من إدخالهم علينا (كما يلي) وولي الناس ... وعلمت أنّه لا يضرّ عدوي مشهدي (حضورى) ولا ينفعهم وكّتي (فرارى) فتواريت، ثمّ لحقت بابن الزبير^١.

اقتحام خندق المدينة

وهكذا ذكر الطبري خبر الحرّة بلا اختراق للخندق، بينما اختزل الدينوري خبر القتال في الحرّة إلى خبر اختراق الخندق عليهم فقال: لمّا انتهوا إلى المدينة عسكروا بالحرّة، ثمّ مشى رجال منهم فأطافوا بالمدينة من كلّ ناحية فلا يجدون مدخلا، والناس متلبّسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق، فجعل أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالنبل والحجارة من فوق الآكام والبيوت حتّى جرحوا منهم وفي خيلهم.

فخرج مروان إلى رجل من بني حارثة في ضيعته فقال له: افتح لنا طريقاً وأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين (يزيد) وأضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه. فرغب فيما بذل له وقبل ما ضمن له عن يزيد، وفتح له طريقاً، فافتحمت الخيل المدينة^٢ ولذا كان بنو حارثة آمنين ما قتل أحد منهم، وكان قصرهم أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمّنوه، وكلّ من نادى باسم الأمان لأحدهم أمّنوه ثمّ ذبّوا عنه حتّى يبلغوه قصر بني حارثة، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء، لم يزالوا في قصرهم حتّى انقضت الثلاث^٣.

١. الإمامة والسياسة ١: ٢٢٠ وقال: وكان معنا يوم الحرّة ألفا رجل ذو حفاظ.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢١١، وأشار إليه خليفة في تاريخه: ١٤٩، واليعقوبي ٢: ٢٥٠.

٣. المصدر السابق ١: ٢١٣.

وكان ابن حنظلة في ناحية الطورين لما جاءه خبر دخولهم المدينة، فأقبل إليهم، وكان عبد الله بن مطيع العدوي في ناحية ذناب فأقبل إليهم، فاجتمعوا بمن معهم حيث اقتحم عليهم أهل الشام، فاقتتلوا حتى عاينوا الموت؛ والنساء والصبيان يصيحون ويبكون على قتلاهم.

وجعل مسلم المرّي ينادي: من جاء برأس رجل فله كذا وكذا يغري بهم قوماً لا دين لهم، حتى جاءهم ما لا طاقة لهم به، وظهروا على أكثر المدينة.

وكان على بشر بن حنظلة الغسيل درعان، فلما هزم القوم طرحهما ثم جعل يقاتلهم حاسراً حتى ضربه شاميّ بسيفه على منكبه فوق قتيلاً، فلما قتل ابن حنظلة الأمير صار أهل المدينة كالنعم شروداً بلا راع يقتلهم الشاميون في كل وجه.

وأقبل محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري فارساً يقاتل جريحاً فيحمل على كردوس من أهل الشام فيفضّ جماعتهم، فاجتمع جمع من أصحاب الرماح وحملوا عليه حملة واحدة وطعنوه برماحهم حتى مال قتيلاً، فلما قتل انهزم باقي الناس في كل وجه، ودخل القوم المدينة تجول خيولهم فيها يقتلون وينهبون!

وقيل لعبد الله بن زيد بن عاصم: لو علم القوم باسمك وصحبتك لم يهيجوك بأذى فلو أعلمتهم! فقال: لا أفلح من ندم، لا والله لا أبرح حتى أقتل ولا أقبل لهم أماناً! وكان أصلع حاسراً، فضربه شامي بفأس على رأسه فسقط قتيلاً صائماً^١.

نهب المدينة وإباحتها

وأول دور انتهت والحرب قائمة: دور بني عبد الأشهل، فما تركوا في المنازل من أثاث ولا حليّ ولا فراش إلا نقض صوفه، حتّى إنّهم كانوا يذبحون الدجاج والحمام!

ودخل عشرة منهم دار محمّد بن مسلمة الأنصاري فتصايحت النسوة، فسمعهنّ زيد بن محمّد ففرع لهنّ ومعه رجلان من أهله حتّى قتل جميع الشاميين، ثمّ أقبل نفر آخرون منهم فقاتلوهم أيضاً حتّى ضربه أربعة منهم بسيوفهم في وجهه فقتلوه بعد أن قتل أربعة عشر رجلاً منهم.

ولزم خدره أبو سعيد الخدري فهتكوا ستره وسألوه: من أنت أيّها الشيخ؟ قال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ! قالوا: ما زلنا نسمع عنك، فبحظّك أخذت في ترك قتالنا وكفّك عنا ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك! قال: واللّٰه ما عندي مال. فضربوه حتّى نتفوا لحيته ثمّ أخذوا كلّ ما وجدوه في بيته حتّى الصواع والحمام!

ولزم سعيد بن المسيّب المسجد فكان لا يخرج منه إلا ليلاً، وأمن. وخرج جابر بن عبد الله الأنصاري وهو يومئذٍ أعمى إلى بعض زقاق المدينة وهو يقول: تعس من أخاف الله ورسوله! فسئل: ومن أخاف الله ورسوله؟! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبيّ! فسمعه شاميّ فحمل عليه بسيفه ليقتله، - وكان مروان بن الحكم حاضراً - فترامى عليه مروان وأجاره وأدخله منزله وأغلق عليه بابه، فسلم، وأسروا كثيراً فغلّوهم^١.

١. الإمامة والسياسة ١: ٢١٣، ٢١٤، وانظر تحريف خبر الخدري في تاريخ خليفة: ١٤٩ واعجب!

وأنهبها ثلاثاً فقتل الناس، وفضحت النساء، ونهبت الأموال^١.
وقال اليعقوبي: وأباح مسلم المرّي المدينة لجنده فلم يبق بها كثير أحد نجا من القتل، وحتى حملت الأبقار لا يعرف لمن^٢. وروى البيهقي عن الحسن البصري أنه ذكر الحرة فقال: واللّه ما كاد ينجو منهم أحد، ونهبت المدينة؛ وافتضّ فيها ألف عذراء، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون^٣.
ودخل شاميّ على امرأة ابن أبي كبشة الأنصاري، قالت: لقد بايعت معه رسول الله ﷺ يوم الشجرة على ألا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي، ولا آتي ببهتان أفتريه. وكانت قد نفست حديثاً بصبيّ، فقال الشامي لها: هل من مال؟
قالت: لا والله ما تركوا لي شيئاً! فقال لها: والله لتخرجنّ إليّ شيئاً أو لأقتلنك وصبيّك هذا! فقالت له: ويحك إنه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله... فاتق الله! ثم التفتت إلى الصبي وهي ترضعه وقالت له: يا بني! والله لو كان عندي شيء لافتديتك به. وكان الصبيّ في حجرها وثديها في فمه، فأخذ برجله وجذبه من حجرها وضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض! ثم خرج من البيت ولكنّه اسودّ وجهه نصفياً، وصار يضرب به المثل^٤.

أعداد القتلى في الحرة:

قال المسعودي: وكانت وقعة عظيمة، قتل فيها خلق كثير من الناس، من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس. فممن قتل من آل أبي طالب: اثنان: جعفر بن محمّد (ابن الحنفية) بن عليّ وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (كذا! وهو وهم) ومن بني هاشم: الفضل بن العباس بن ربيعة، وحمزة بن

١. الإمامة والسياسة ٢: ١٠.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٠.

٣. دلائل النبوة للبيهقي ٦: ٤٧٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٤٩.

٤. الإمامة والسياسة ١: ٢١٥.

عبد الله بن نوفل، والعباس بن عتبة بن أبي لهب. ومن سائر قريش بضع وتسعون رجلاً، ومثلهم من الأنصار، ومن سائر الناس ممّن أدركه الإحصاء: أربعة آلاف^١.

ويبدو أنّ أقدم قائمة بتسميتهم هي قائمة الليثي العصفري البصري (م ٢٤٠هـ) وهذا بدأ ببني هاشم وبدأ منهم بعبد الله بن جعفر كما مرّ، وهو وهم، ثمّ سمّى سائر قريش حتّى قال: فجميع من أصيب من قريش سبعة وتسعون رجلاً، ثمّ سمّى الأوس ثمّ الخزرج حتّى قال: فجميع من أصيب من الأنصار مائة وثلاثة وسبعون رجلاً! وجميع من أصيب من قريش والأنصار: نحو ثلاثمائة رجل^٢ واكتفى بهذا.

وزاد المسعودي ثانياً عن الواقدي، قال: قتل عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري الأوسي في عدّة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ومواليهم وحلفائهم وغيرهم من قريش نحو من سبعمئة رجل، ومن سائر الناس من الرجال والنساء والصبيان! نحو من عشرة آلاف ... فكان ذلك من أعظم الأحداث في الإسلام وأجلّها وأفضعها رزاً بعد قتل الحسين بن عليّ عليه السلام^٣.

وقال الدينوري: فبلغ عدّة قتلى الحرّة يومئذ من قريش والمهاجرين والأنصار ووجوه الناس ألفاً وسبعمئة، ومن سائر الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان^٤.

١. مروج الذهب ٣: ٦٩ - ٧٠.

٢. تاريخ ابن الخياط: ١٥٠ - ١٥٥.

٣. التنبيه والإشراف: ٢٦٤.

٤. الإمامة والسياسة ١: ٢٦٥.

وقال ثانياً: وذكروا أنه قتل يوم الحرة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً حتى لم يبق بدري منهم بعد ذلك أبداً، وقتل من قريش والأنصار سبعمائة، ومن سائر الناس من التابعين والعرب والموالي عشرة آلاف^١.

وقال ثالثاً: قال الزهري: بلغ القتلى يوم الحرة من قريش والأنصار ومهاجرة العرب ووجوه الناس سبعمئة، ومن سائر الناس من الأخلاط والموالي والعبيد عشرة آلاف، واصيب نساء وصبيان. وقتل بها من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً ولم يبق بدري بعد ذلك. وكان قدومهم المدينة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، فانتهبوها ثلاثاً حتى رأوا هلال المحرم فأمسكوا^٢.

وقال رابعاً: عن محمد بن عمرو بن حزم: قتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش منهم ابنان لعبد الله بن جعفر، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار منهم خمسة أو أربعة من صلب زيد بن ثابت الأنصاري، ومن سائر الناس نحو من أربعة آلاف^٣. والأخير أولى.

وفي الجزري: كان في من قتل يوم الحرة: ابنان لزينب بنت أبي سلمة المخزومية (بنت أم سلمة) فحملاً مقتولين فوضعا بين يديها، فاسترجعت وقالت: والله إن المصيبة فيهما عليّ لكبيرة، وهي عليّ في هذا أكبر من ذاك؛ لأنه جلس في بيته فدخل عليه فقتل مظلوماً! وأما الآخر فإنه بسط يده وقاتل، فلا أدري على ما هو^٤؟

١. المصدر السابق ١: ٢١٦.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢٢٠، وعن الزهري كذلك في تاريخ ابن الوردي ١: ١٦٥.

٣. الإمامة والسياسة ٢: ١٠.

٤. عنه في قاموس الرجال ١٢: ٢٦١ برقم ١١٣، وتحريفه في تاريخ خليفة: ١٤٩.

وقالوا: لقد مكث النوح على أهل الحرّة في الدور سنة لا يهدؤون! وقال
الأعرج: كان الناس قبل الحرّة لا يلبسون المصبوغ (الأسود) من الثياب فلمّا قتل
الناس بالحرّة استحبّوا أن يلبسوها^١.

كتاب ابن عقبة إلى ابن معاوية

مرّ عن الدينوري أنّه خالف المعروف في تسمية قتال أهل المدينة بالحرّة، فلم يذكر في الحرّة إلا نزول جيش الشام، ثمّ إحاطتهم بخندق المدينة ثمّ اقتحامه بدلالة رجل من بني حارثة، وانفرد - فيما نجد - بذكر كتاب لمسلم المرّي إلى أميره يزيد مع هذا الرجل الحارثي، وفيه أيضاً لم يذكر إلا مثل ذلك: «لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين! من مسلم بن عقبة، سلام عليك يا أمير المؤمنين! ورحمة الله وبركاته، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد تولّى الله حفظ أمير المؤمنين! والكفاية له: فإنّي أخبر أمير المؤمنين! أبقاه الله:

أنّي خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التي رأى أمير المؤمنين! يوم فارقنا بالعافية، فلقينا أهل بيت أمير المؤمنين! بوادي القرى فرجع معنا مروان بن الحكم، وكان لنا عوناً على عدوّنا، وإنّا انتهينا إلى المدينة فإذا أهلها خندقوا عليها الخنادق، وأقاموا على أنقابها الرجال بالسلاح، وأدخلوا ماشيتهم وما يحتاجون لحصارهم سنة! فيما يقولون.

وإنّا أعذرنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين! وما بذل لهم، فأبوا، ففرقت أصحابي على أفواه الخنادق: فولّيت الحصين بن نمير ناحية الذناب وما والاه، ووجّهت جيش دلجة على الموالى (كذا) إلى ناحية بني سلمة، ووجّهت عبد الله ابن مسعدة إلى ناحية بقيع الغرقد، وكنت - ومن معي من قوادر أمير المؤمنين ورجاله في وجوه بني حارثة (ثمّ) بطريق فتحه لنا رجل منهم بما دعاه مروان بن الحكم إلى صنع أمير المؤمنين! وما تضمّن له عنه من قرب المكانة وجزيل العطاء وإيجاب الحقّ وقضاء الذّمام، وقد بعثت به إلى أمير المؤمنين! وأرجو من

اللّٰه أن يلهم خليفته وعبدہ عرفان ما أولى من الصنع وأسدی من الفضل! وكان من محمود مقام مروان بن الحکم وجميل مشهده وسديد بأسه وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين! ما لا أخال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين وخليفة ربّ العالمين إن شاء اللّٰه! فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار من ناحية بني عبد الأشهل ... وسلّم اللّٰه رجال أمير المؤمنين! فلم يصب أحد منهم بمكروه! ولم يقم لهم عدوهم من ساعات نهارهم أربع ساعات، فما صليت الظهر - أصلح اللّٰه أمير المؤمنين - إلا في مسجدهم! بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم! وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم! وأتبعنا مدبرهم! وأجهزنا على جريحهم! وانتهبناهم ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين! أعزّ اللّٰه نصره، وجعلت دور بني الشهيد المظلوم عثمان بن عفّان في حرز وأمان!

فالحمد لله الذي شفى صدري من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم! فطالما عتواً وقديماً ما طغوا.

وكتبت إلى أمير المؤمنين! وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفأ مريضاً ما أراني إلا لما بي، وما أبالي متى مت بعد يومي هذا! وكتب لهلال المحرم سنة ثلاث وستين».

جاءه الكتاب وعبد اللّٰه بن جعفر لا زال عنده بدمشق، فأرسل إليه وعنده ولده معاوية بن يزيد، فأقرأهما الكتاب، فاسترجع ابن جعفر وأكثر، فقال له يزيد: ألم أجبك إلى ما طلبت وأسعفتك فيما سألت، فبذلت لهم العطاء وأجزلت لهم الإحسان، وأعطيت العهود والمواثيق على ذلك؟!!

فقال عبد اللّٰه بن جعفر: فمن هنا استرجعت وتأسفت عليهم إذ اختاروا البلاء على العافية والفاقة على النعمة، ورضوا بالحرمان دون العطاء!

وبكى ابنه معاوية فقال له: وما بكأؤك يا بني؟! قال: أبكي على من
قتل من قریش! وإنما قتلنا بهم أنفسنا! فقال يزيد: هوذاك قتلت بهم نفسي
وشفيتُها!.

أخذه البيعة ليزيد

روى خليفة، قال: ثمّ دعا الناس الباقين إلى البيعة على أنّهم خول ليزيد بن معاوية! يحكم في أموالهم وأهلهم ودمائهم ما شاء! حتّى أتى بعبد الله بن زمعة (القرشي الأسدي من قوم ابن الزبير) وكان من قبل من أصفياء أصدقاء يزيد، فقال له المرّي: بايع على أنّك خول لأمير المؤمنين! يحكم في مالك وأهلك ودمك! قال: أباعك على أنّي ابن عمّ أمير المؤمنين! يحكم في دمي وأهلي ومالي! قال: اضربوا عنقه! وكان مروان حاضراً فوثب وضمّه إليه وقال لمسلم: يبايعك على ما أحببت! قال: لا والله! لا أقبلها إياه أبداً، ثمّ قال لجلاوزته: إن تنحّى مروان وإلا فاقتلوهما جميعاً! فتركه مروان فضربوا عنقه!

ثمّ أتى بابنه يزيد بن عبد الله بن زمعة (وكان عبد الله زوج زينب بنت أمّ سلمة زوج النبي، فيزيد ابن بنتها) فقال له مسلم: بايع وقال: أباعك على كتاب الله وسنة نبيّه! فأمر بقتله! فقتلوه!

وعاد بنو أميّة إلى المدينة. وقال ابن قتيبة: وانتقل مسلم من منزله (بالحرّة) إلى قصر بني عامر في دومة (من المدينة) ودعا من بقي من أهل المدينة للبيعة^٢، وكان بنو أميّة أوّل من دعاهم إلى بيعة يزيد، وأولهم مروان بن الحكم، ثمّ سائر أكابرهم^٣.

وأتي بعمر بن عثمان بن عفّان (وكان كاظماً غيظه عليه لوفائه بحلفه لأهل المدينة) ولا يعرفه من حضره من أهل الشام، فقال لهم: تعرفون هذا؟ قالوا: لا،

١. تاريخ خليفة بن الخياط الأموي الهوي: ١٤٩.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٠.

٣. المصدر السابق ١: ٢١٤.

قال: هذا الخبيث ابن الطيّب: هذا عمرو بن عثمان أمير المؤمنين! ثم قال له: هيه يا عمرو؛ إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم! وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان! (وكانت أمّ عمرو دوسيّة) فقال: وإنّ أمّ هذا كانت تدخل الجعل في فيها! ثم تقول لأبيه: يا أمير المؤمنين حاجيتك! ما في في؟ وفي فيها ما أساءها! ثم أمر مسلم أن تنتف لحية عمرو فنتفوها! ثم خلى سبيله^١.

قال ابن قتيبة: بايع عمرو بن عثمان ثم ذهب إلى أمّ سلمة زوج النبي ﷺ (وكانت حيّة يومئذ) وقال لها: أرسلني معي ابن بنتك يزيد بن عبد الله بن زمعة (القرشي الأسدي وكأّنه كان لاجئاً مستجيراً بجدّته أمّ سلمة) فجاء به إلى مسلم المرّي.

فلما تقدّم يزيد قال له مسلم: تباع لعبد الله يزيد أمير المؤمنين! على أنكم ممّا أفاء الله عليه بأسيايف المسلمين! خول له فإن شاء وهب وإن شاء أعتق وإن شاء استرق! فقال يزيد: لأنّا أقرب إلى أمير المؤمنين منك! فقال مسلم: والله لا تستقبلها أبدا!

وكان مسلم قد أكرم عمرو بن عثمان هذه المرّة فأجلسه معه على سريره فقال لمسلم: أنشدك الله! فإنّي أخذته من أمّ سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردّه عليها! فركضه مسلم برجله فرماه من سريره! وأمر بقتل يزيد^٢.

ولعلّ مروان كان حاضراً فوثب وضمّه إليه فكان ما مرّ من الخبر السابق. ثمّ أتى بمعقل بن سنان الأشجعي حامل لوائهم يوم فتح مكّة، وكان معقل على الاستراحة إلى مسلم المرّي قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل هذا، فلما أدخل عليه قال له: يا معقل! أعطشت؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير! قال لهم:

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٩٤.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٠.

حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين! فلمّا شربها قال له: رويت؟ قال: نعم، قال مسلم: أما والله لا تبولها أبدا! ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك، فقدّم فضربت عنقه^١.

ثمّ أتى بعبد الله بن الحارث مغلولاً، فقال له مسلم: أنت القائل: اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أميّة لا تروا شراً أبدا! قال: قد قتلها، ولكن لا يُسمع لأسير أمر، أرسل يدي وقد برئت مني الذمة، إنّما نزلت بعهد الله وميثاقه، وأيم الله لو أطاعوني وقبلوا مني ما أشرت به عليهم، ما تحكّمت أنت فيهم أبدا! فأمر به فضربت عنقه^٢.

ثمّ أمر بمحمّد بن أبي الجهم وجماعة من وجوه قريش والأنصار من خيار الصحابة والتابعين ... فجعل مروان يعتذر إلى القرشيين منهم يقول: والله لقد أساءني قتل من قتل منكم!

فقالت له قريش: أنت والله الذي قتلنا، ما عذرناك الله والناس، لقد خرجت من عندنا وقد حلفت لنا عند منبر رسول الله ﷺ لتردّتهم عنّا فإن لم تستطع لتمضين ولا ترجع معهم، فرجعت ودلت على العورة وأعنت على الهلكة، فالله لك بالجزاء.

فقال مروان للمرّي: قد والله شفيتني من دماء هؤلاء القوم إلا ما كان من قريش! فإنّك أفنيته وأثختتها! فقال مسلم: والله لا أعلم عند أحد غشاً لأمر

١. وقال ثانياً: أتاه مئة رجل من قومه (أشجع) وقالوا له: اذهب بنا إلى الأمير نبايعه. قال: قد قلت له قولا أتخوّف منه! قالوا: لا والله لا يصل إليك أبدا! فلمّا بلغوا باب قصره أدخلوا معقلاً وأغلقوا الباب دون قومه فحبسوه خلفه. ثمّ ساق الخبر نحواً ممّا مرّ وفيه: وكانت عليه جبة فجعل يمزّقها لئلا يلبسوها! فيعلم أنّ الفصل في المحرم لسنة (٦٣) لم يكن صيفاً قائضاً وحاراً.

٢. الإمامة والسياسة ١: ٢١٤، ونسبها في ٢: ١٠ إلى محمّد بن أبي الجهم.

المؤمنين إلا سألت الله أن يسقيني دمه! فقال مروان: إنَّ عند أمير المؤمنين! عفواً لهم وحلما عنهم ليس عندك^١!

وفي اليعقوبي: ثمَّ أخذ الناس على أن يبايعوا على أنَّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرجل من قريش يؤتى به فيقال له: بايع أنَّك عبد قنَّ ليزيد، فيقول: لا. فتضرب عنقه^٢.

وقال المسعودي: بايعَ من بقي من أهلها على أنَّهم قنَّ ليزيد! والقنَّ: العبد الذي ملك أبواه. والذي ملك في نفسه دون أبويه فهو عبد مملكة^٣ وقال:

وبايع الناس على أنَّهم عبيد ليزيد، ومن أبى ذلك أمرَّ على السيف^٤.

١. الإمامة والسياسة ١: ٢١٥.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٠-٢٥١.

٣. التنبيه والإشراف: ٢٦٤.

٤. مروج الذهب ٣: ٧٠.

الإمام السجّاد ومسرف بن عقبة

قال ابن قتيبة: لم يكن أحد من بني هاشم نصب للحرب، ولزموا بيوتهم فسلموا، إلا ثلاثة منهم تعرّضوا للقتال فأصيبوا.

وقبل أن يرتحل مسلم بن عقبة عن المدينة (لشهر صفر) سأل عن عليّ بن الحسين عليه السلام أحاضر هو؟ ف قيل: نعم (ف قيل لعليّ) فاتاه عليّ بن الحسين مع ابنه (؟) فرحب وسهّل، وقربهم، وقال: إنّ أمير المؤمنين! أوصاني بك. فقال عليّ بن الحسين: وصله الله وأحسن جزاءه! ثمّ انصرف عنه^١.

ولم يتحقق اليعقوبي في النقل فقال: أتاه عليّ بن الحسين عليه السلام فقال: علام يريد يزيد (كذا بلا لقب) أن أبايعك؟! قال: على أنّك أخ وابن عمّ! فقال: وإن أردت أن أبايعك على أني عبد قنّ فعلت! فقال: ما أجشّمك هذا! فلمّا رأى الناس ذلك قالوا: هذا ابن رسول الله بايعه على ما يريد فبايعوه على ما أراد^٢!

بينما جاء في المسعودي: كان عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام قد لاذ بالقبر (قبر رسول الله) وهويدعو، فأتي به إلى المسرف وهو مغتاض عليه يبرأ منه ومن آبائه! ولكنّه لمّا أشرف عليه ورآه ارتعد وقام له وأقعده إلى جانبه وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممّن قدّم إلا شفّعه فيه، ثمّ انصرف عنه! ف قيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه فلمّا أتي به إليك رفعت منزلته؟!^٣

١. الإمامة والسياسة ١: ٢١٨.

٢. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١.

فقال: ما كان ذلك لرأي مني! لقد ملئ قلبي رعباً منه!

وقيل لعلّي عليه السلام: رأيناك تحرّك شفّيتك فما الذي قلت؟ قال: قلت: «اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، وربّ العرش العظيم، ربّ محمّد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه وأدرا بك في نحره، وأسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه»^١.

هذا ما ذكره أولاً، ثمّ قال ثانياً: وباع من بقي على أنّهم قنّ ليزيد... غير عليّ بن الحسين بن عليّ عليه السلام لأنّه لم يدخل فيما دخل فيه أهل المدينة. وعليّ بن عبد الله بن العباس فإنّ أخواله من كندة في جيش مسلم منعه^٢. وقد مرّ عن الطبري عن الكلبي عن الأزدي عن حبيب بن كرهة الراوي الأموي: أنّ يزيد استوصى المرّي به خيراً وقال له: فإنّه لم يدخل في شيء ممّا دخلوا فيه. وقد كان عليّ بن الحسين لا يعلم بشيء ممّا أوصى به يزيد^٣ فلا ينافي ما رواه المسعودي من دعائه وإجابته عليه السلام.

وأفاد المفيد: أنّه عليه السلام بلغه توجه مسرف بن عقبة إلى المدينة فحفظوا عنه دعاء في ذلك وذكره أكثر ممّا مرّ ثمّ قال: فقدم مسرف بن عقبة المدينة وقيل: لا يريد غير عليّ بن الحسين عليه السلام فسلم منه وأكرمه وحباه ووصله^٤. وعبر عن الخبر الحلبي بقوله: أنهي إليه عليه السلام أنّ مسرفاً استعمل على المدينة وأنّه يتوعّده! فجعل يكثر من الدعاء لما اتّصل به عن المسرف. ثمّ ذكر الدعاء ثمّ قال: فلما قدم المسرف المدينة (كذا) اعتنقه وقبّل رأسه وجعل يسأل عن حاله وحال أهله وعن حوائجه، وأمر أن تقدّم له دابّته وعزم عليه أن يركبها فركب وانصرف إلى أهله^٥.

١. مروج الذهب ٣: ٧٠-٧١.

٢. التنبيه والإشراف: ٢٦٤.

٣. تاريخ الطبري ٥: ٤٨٥، وانظر التعليق السابق عليه.

٤. الإرشاد ٢: ١٥١-١٥٢.

٥. مناقب آل أبي طالب ٤: ١٧٨ وصحّف بالمشرف!

وأفاد المفيد أيضاً بأن: جاء الحديث من غير وجه: أنّ مسرف بن عقبة لمّا قدم المدينة (كذا) أرسل إلى عليّ بن الحسين عليهما السّلام فأتاه! فلمّا صار إليه قرّبه وأكرمه وقال له: وصّاني أمير المؤمنين! ببرّك وتمييزك من غيرك! فجزّاه خيراً! ثمّ قال: أسرجوا له بغلتي، وقال له: انصرف إلى أهلِكَ فإنّي أرى أن قد أفرغناهم! وأتعبناك بمشيِكَ إلينا، ولو كان بأيدينا ما نقوى به على صلتك بقدر حقّك لوصلناك! فقال له عليّ بن الحسين عليه السّلام: ما أعذرني للأمير (أي ما أقبلني لقبول عذره) ثمّ ركب.

فقال المرّي لجلسائه: هذا الخير لا شرّ فيه! مع موضعه من رسول الله ومكانه منه^١. وروى الطبري عن الكلبي عن عوانة، قال: لما أتى بعليّ بن الحسين عليه السّلام إلى مسلم قال: من هذا؟! قالوا: هذا عليّ بن الحسين. فقال: أهلاً ومرحباً، ثمّ أجلسه على طنفته على السرير ثمّ قال: إنّ أمير المؤمنين! أوصاني قبلاً بك وهو يقول لك: إنّ هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن صلتك! ثمّ قال له: لعلّ أهلِكَ فزعوا؟! قال: إي والله! فأمر بدابّته فاسرجت فردّه عليها^٢.

ولعلّه مختصر الخبر السابق فيه عن الكلبي عن أبي مخنف، وهو الوحيد المتضمّن لذكر من أتى به عليه السّلام، وفيه: أنّ مروان ومعه ابنه عبد الملك أراد أن يشكر له عليه السّلام إيواؤه أهلهم، فجاء بعليّ بن الحسين يمشي بينه وبين ابنه عبد الملك حتّى جلسوا عنده كذلك، ثمّ دعا مروان بماء ليشربوا منه فيتحرّموا به منه فاتى به له فشرب منه يسيراً ثمّ ناوله عليّاً عليه السّلام ولكنّه لمّا أمسك بالقدح ليشرب منه قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا! فأمسك لا يشربه ولا يضعه، فقال له: إنّك إنّما جئت (كذا) تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي! ووالله لو كان هذا الأمر إليهما

١. الإرشاد ٢: ١٥٢.

٢. تاريخ الطبري ٥: ٤٩٤.

لقتلتك! ولكنّ أمير المؤمنين أوصاني بك ... فذلك نافعك عندي! ثمّ قال له: فإن شئت فاشرب شرابك وإن شئت دعونا لك بغيره. فشربها، ثمّ قال له: إليّ هاهنا. فأجلسه معه^١. وهو كما ترى أجمع الأخبار.

وهنا - قال المقرّم - يسأل عن قعود السجّاد عليه السلام عن المشاركة مع الثائرين الناقمين على يزيد، ويجب عنه^٢، وأكثر منه تحليلاً وتفصيلاً السيد الحسيني الجلال^٣.

ولمّا فرغ مسلم المرّي من أمر المدينة خلف عليها روح بن زبّاغ الجذامي، ثمّ شخص بمن معه من جنده إلى مكّة^٤.

خوارج البصرة

مع تمرّد ابن الزبير بمكّة وابن الغسيل بالمدينة، تمرّد مرداس بن أدية من البصرة فخرج على ولاية ابن زياد بها في أربعين رجلاً، فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عليهم عبد الله بن حصن الثعلبي، فقتله الخوارج في أصحابه وهزموهم، فبعث إليهم جيشاً آخر عليهم عبّاد بن أخضر فقاتلهم على شاطئ ميسان فقتلهم أجمعين.

فخرج بعده نافع بن الأزرق في نحو من خمسمائة سُمّوا الأزارقة، فخرج إليهم ابن عبيس في ألفين، والتقوهم في موضع يدعى دستواء، فقتلوا، فقتل الأميران من العسكرين وأمسوا فأمسكوا، ووصلهم من اليمامة أمداد ورأس

١. تاريخ الطبري ٥: ٤٩٣ عن الكلبي، عن عوانة، عن أبي مخنف، وفيه: وأخبرني (يزيد) أنّك كاتبته! وأراها زيادة من عوانة الأموي النزعة، منفردا به وبلا إجابة.

٢. حياة الإمام زين العابدين: ٣٦٧ - ٣٦٩.

٣. في جهاد الإمام السجّاد: ٦٧ - ٧٢.

٤. تاريخ الطبري ٥: ٤٩٦ عن أبي مخنف.

الخوارج الزبير بن ماحوز، فهزموا أهل البصرة وساروا إلى المدائن، ثمّ غلبوا على الأهواز وفارس، وجبوا الأموال^١.

مسير ابن النمير إلى ابن الزبير:

انتهى مسلم المرّي من أمر المدينة مع آخر ذي الحجة من آخر السنة الثالثة والستين، إلى أواسط شهر المحرم من أوّل السنة الرابعة والستين، ثمّ خرج منها بجنده إلى مكة متفرّغاً لأمر ابن الزبير.

قال خليفة: سار بالناس نحو مكة، حتّى إذا خرج من الأبواء ثقل بالأوباء والأدواء، ولمّا عرف أنّ الموت نازل به دعا الحصين بن نمير الكندي السكوني فقال له: قد دعوتك وما أدري أقدمك فأضرب عنقك أو أستخلفك على الجيش! قال: أصلحك الله، سهمك فأرم بي حيث شئت!

قال: إنّك أعرابي جلف جاف، وإنّ هذا الحيّ من قريش لم يمكّنهم أحد من اذنيه إلا غلبوه على رأيه! فسر بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم فأياك أن تمكّنهم من أذنيك، لا يكوننّ إلا الوقاف ثمّ الثقاف ثمّ الانصراف^٢.

وقال اليعقوبي: لمّا صار في ثنية المشلل احتضر فأحضر الحصين بن نمير وقال له:

يا برذعة الحمار! لولا (وصية) حبّيش بن دلجة القيني لما وليتك! فإذا قدمت مكة فلا يكوننّ عملك إلا الوقاف ثمّ الثقاف ثمّ الانصراف! ثمّ قال: اللهمّ إن عذبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية وقتل أهل الحرّة! فأنيّ إذن لشقيّ؟ ثمّ خرجت نفسه، فدفن هناك. وتقدّم الحصين بهم إلى مكة.

١. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٥٩ - ١٦٠.

٢. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٥٨، وقال فيه: لعنه الله ولا رحمه! هذا وهو معدود في الصحابة!

وجاءت أمّ ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشت قبره وأخرجته وصلبته، وجاءه ناس فرجموه! وبلغ الخبر الحصين بن نمير فرجع ودفنه، ودفن معه جماعة من أهل ذلك الموضع، وقيل: لم يدع أحدا منهم^١! فأثبت جدارته! وكان ذلك في منتصف شهر محرّم لسنة (٦٤ هـ).

حصار الحصين على مكة

وسمع ابن الزبير بإقبال ابن نمير إليه، فأحكم مراصد مكة وجعل عليها المقاتلين. ونزل ابن نمير على مكة فأرسل خيلاً إلى أسفلها، ونصب عليها العرّادات والمجانيق، وفرض على أصحابه أن يرموا مكة كل يوم بعشرة آلاف صخرة! وبدأ الحصار للعشرين من المحرم، فحاصروهم بقيّة المحرم وصفر وشهري الربيع يغدون للقتال ويروحون^٢.

وتغلّب الحصين على مكة تدريجاً حتّى نصب مجانيقه على جبل قعيقعان وعلى جبل أبي قبيس، فأشكل على الطائفين، وكان طول الكعبة في السماء ثماني عشرة ذراعاً، فأسند ابن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت وألقى عليها فرشاً وقطائف فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح، فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت، وكان الطائفون إذا سمعوا صوت الحجر على الفرش والقطائف يكبرون.

وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية المسجد فكلّموا جرح أحدهم حمل إلى ذلك الفسطاط.

١. تاريخ يعقوبي ٢: ٢٥١.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٢.

وكان مع ابن الزبير من وجوه قريش: أخوه المنذر بن الزبير وأخوان آخران، ومصعب بن عبد الرحمان بن عوف، والمسور بن مخرمة بن نوفل، وعبد الله بن المطيع العدوي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي في آخرين منهم^١، وكان ابن نمير قد غلب على مكة إلا المسجد، وهبت رياح، فقال المختار: والله إنني لأجد النصر في هذه الرياح فاحملوا عليهم، فحملوا عليهم وقتل المختار رجلاً وقتل ابن المطيع آخر حتى أخرجوهم من مكة.

وفي الثالث من ربيع الأول وقعت النيران على الكعبة فاحترقت الفرش والقطائف والخشب وأستار الكعبة وتساقطت إلى الأرض وانصدع الحجر الأسود فالتحمت الحرب مرة ثانية عند باب بني شيبه، فقتل المنذر بن الزبير واثنان من إخوته، ومصعب بن عبد الرحمان بن عوف والمسور بن مخرمة^٢.

وفي اليعقوبي: وأراد ابن الزبير أن يغضب المسلمون للكعبة لذلك لما قال له أصحابه: نطفئ النار؟ منعهم! وكان ابن الزبير قد نصب عبد الله بن عمير الليثي للقضاء بمكة، فكان إذا تواقف الفريقان قام على الكعبة ونادى بأعلى صوته:

يا أهل الشام! هذا حرم الله الذي كان مأمناً في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد، فاتّقوا الله، فيجيبه الشاميون: الطاعة الطاعة! الكرة الكرة! ولما أحرقوا الكعبة قالوا: اجتمعت الحرمة والطاعة فغلبت الطاعة الحرمة^٣!

١. الإمامة والسياسة ٢: ١٣-١٤، وفي المسعودي: كان المختار بن أبي عبيد الثقفي داخلاً في جملة ابن الزبير منضافاً إلى بيعته على شرائط شرطها عليه: ألا يخالف له رأياً ولا يعصي له أمراً، كما في مروج الذهب ٣: ٧١.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٤.

٣. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١-٢٥٢.

وقال المسعودي: تواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ملفوفة بخرق الكتان مغمّسة بالنفط مشعلة بالنار، فاحترقت البنية وانهدمت الكعبة وذلك يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلاً، وقيل أكثر من ذلك^١. وحاول الواقدي أن ينسب الحريق إلى إيقاد النار من قبل الزبيرين أنفسهم^٢.

هلاك يزيد وتبدّد الجنود

كان ابن الزبير قبل حريق البيت العتيق يجلس بأصحابه في فسطاطه، واحترق فسطاط بلاطه مع احتراق المطاف، فأخذوا يجلسون في ناحية حجر إسماعيل يحتمون بالبيت أو بما بقي منه، وكان الشاميون لا يتركون أن يرموهم بالنبال، ووقعت نبلة بين يدي الزبير فأخذوها ووجدوها مكتوبة كذا: مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. فلما قرأها ابن الزبير قام يناديهم: يا أهل الشام! يا مستحلّي حرم الله! يا محرقي بيت الله! علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم يزيد بن معاوية^٣؟! ووافق هذا الخبر سائر الأخبار في سبق خبر موت يزيد إلى ابن الزبير دون ابن النمير بلا ذكر كيفية وصوله إليه، وإنما جاء في خبر عوانة: أنّه أخذ يناديهم:

١. مروج الذهب ٣: ٧١، ٧٢ وقال وليزيد مثالب كثيرة: من شرب الخمر والفسق والفجور وسفك الدماء، وهدم البيت وإحراقه، ولعن الوصي، وقتل ابن بنت الرسول، وغير ذلك ممّا قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه، كوروده فيمن جحد توحيدده وخالف رسله. والنفط كما سيأتي إنّما هو من الحجاج نقلاً من البصرة وليس من الحصين نقلاً من الشام أو المدينة.

٢. انظر خبره في الطبري ٥: ٤٩٨ وقارن بما قبله من خبر الكلبي عن عوانة. وانظر نحو ذلك في الإمامة والسياسة ٢: ١٤.

٣. الإمامة والسياسة ٢: ١٤ - ١٥.

علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم؟! وهم لا يصدّقونه. وكان لابن النمير مصاهرة مع ثابت بن قيس النخعي الهمداني الكوفي، وكان يلتقي به عند معاوية، فقدم هذا من الكوفة إلى مكّة فأخبره بهلاك يزيد، فصدّقه.

ثمّ بعث ابن النمير إلى ابن الزبير قال له: موعد ما بيننا وبينك الليلة الأبطح. فالتقيا، فقال له الحصين: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر! فهلمّ فلنبايعك ثمّ أخرج معي إلى الشام، فإنّ هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فواللّٰه لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرّة.

فقال ابن الزبير: أنا اهدر تلك الدماء! أما واللّٰه لا أَرْضَى أن أقتل بكلّ رجل منهم عشرة! وأخذ الحصين يكلمه سرّاً وهو يجهر جهراً: لا واللّٰه لا أفعل! فقال له الحصين: قَبِّح اللّٰه من يعدّك بعد هذه داهياً أو أديباً، قد كنت أظنّ أنّ لك رأياً، ألا أراني أكلّمك سرّاً وتكلّمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكة! ثمّ قام وانصرف إلى جمعه ... وأقبل بهم نحو المدينة وهو يقول: من أين نجد هنا علفاً لدوابّنا؟! فاستقبله عليّ بن الحسين عليه السلام ومعه شعير وعلف رطب، فسلم على الحصين وقال له: هذا علف عندنا فاعلف منه دابّتك! ثمّ أمر له بما كان من علف معه وعنده!

واجترأ أهل المدينة والحجاز على جند الشام وهم ذلّوا حتّى كان لا ينفرد رجل منهم إلا أخذوا بلجام دابّته ونكسوه عنها! فكانوا يجتمعون ولا يفترقون خوفاً. وخاف بنو أميّة فقالوا لهم: لا تبرحوا حتّى تحملونا معكم إلى الشام، ففعلوا، ومضوا حتّى بلغوا الشام، وقد أوصى يزيد بالبيعة لابنه معاوية^١.

١. تاريخ الطبري ٥: ٥٠٢-٥٠٣ عن الكلبي عن عوانة. وجاء في الإمامة والسياسة: حتّى إذا كان بعسفان تفرّقوا .. وانصرف الجيش إلى الشام مفلولاً، وأصاب منهم أهل المدينة حين مرّوا بهم ناساً

وفي اليعقوبي: توفي يزید بموضع يقال له حوَّارين (من بلاد حمص) وحمل إلى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية بن يزید (وله عشرون سنة) وله ثلاثة إخوة: خالد وأبو سفيان وعبد الله. وبلغ الخبر إلى مكة وذاع في العسكر فانكسرت شوكتهم، وأرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزبير أن نلتقي الليلة على الأمان. فالتقيا، فقال له الحصين: إنَّ يزید قد مات وابنه صبيٌّ، فهل لك أن أحملك إلى الشام فليس به أحد! فأبى لك فليس يختلف عليك اثنان؟!

فرفع ابن الزبير صوته: لا والذي لا إله إلا هو، أو نقتل بقتلى الحرّة أمثالهم من أهل الشام! فقال له الحصين: من زعم أنَّك داهية فهو أحمق! أقول لك ما هو لك سرّاً؛ وتقول لي ما هو عليك علانية! ثمَّ انصرف^١ بجنوده نحو المدينة ثمَّ الشام.

موت يزید واستخلاف معاوية وموته:

قال خليفة: في ليلة البدر من شهر ربيع الأول من سنة (٦٤) مات يزید بن معاوية بحوَّارين من بلاد حمص، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وصلى عليه واستخلفه ابنه معاوية بن يزید مريضاً وهو ابن عشرين سنة، إلى أربعين يوماً

⇒

كثيراً فحبسوهم بالمدينة حتّى قدم عليهم مصعب بن الزبير فأخرجهم إلى الحرّة فضرب أعناقهم وهم أربعمائة وأكثر! الإمامة والسياسة ٢: ١٢ منفرداً به.

١. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٢-٢٥٣ وقال: كان سعيد بن المسيّب يسمّي يزید بن معاوية بالشؤم: ففي السنة الأولى قتل الحسين بن عليٍّ وأهل بيت رسول الله! وفي الثانية: استبيح حرم رسول الله وانتهكت حرمة المدينة! وفي الثالثة: سفكت الدماء في حرم الله وحرّقت الكعبة. هذا، وقد لُفّق الواقدي على أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: أوّل من كسى الكعبة الديباج يزید بن معاوية! كما في تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٥٠، وانظر عن ابن عساكر قبله عجباً.

أوشهراً ونصفاً^١ إلى آخر شهر ربيع الآخر. وروى البلاذري: أنه خرج يتصيد بحوَّارين وهو سكران، وحمل قرده على أتان وركب يطاردها فسقط فاندقت عنقه فمات^٢.

وقال المسعودي: هلك يزيد بحوَّارين من أرض دمشق مما يلي قارا والقطيفة في طريق حمص .. وكان أأدم شديد الأدمة عظيم الهامة، بوجهه أثر جذريّ بين، يبادر بلذّته ويجاهر بمعصيته؛ ويستحسن خطأه، ويهون الأمور على نفسه في دينه إذا صحّت له دنياه. وكتب له كاتب أبيه سرجون بن منصور الرومي وآخرون ... وبويع لابنه معاوية بن يزيد لأربعين يوماً. وكان رجلاً ربعة نحيفاً به صفار، وكتب له كاتب أبيه سرجون الرومي^٣.

وكان ابن زياد لم يرض بمعاوية بن يزيد فلم يدعُ إليه، وكان بالبصرة فخطب الناس ونعى إليهم يزيد وقال: اختاروا لأنفسكم. فبادر الأحنف بن قيس التميمي وقال له: نحن بك راضون حتّى يجتمع الناس! وشكرهم ابن زياد فقال: أغدو على أعطياتكم. فوضع ديوان العطاء وأعطى^٤.

ثم أرسل رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل ما فعل أهل البصرة، فحصبوه وأبوا عليه، فلمّا بلغ ذلك أهل البصرة خالفوه كذلك فهاجت بها فتنة على ابن زياد^٥.

وإلى ما بعد (٤٥) يوماً من هلاك يزيد؛ أي في آخر شهر ربيع الآخر تأخر لحقوق ابنه معاوية بأبيه.

١. تاريخ خليفة: ١٥٨.

٢. قاموس الرجال ١١: ١١٤.

٣. التنبيه والإشراف: ٢٦٤ - ٢٦٥. وعدّ ابن قتيبة ليزيد اثني عشر ابناً وأربع بنات.

المعارف: ٣٥١ وذكرهم الطبري عن الكلبي ٥: ٥٠٠.

٤. تاريخ ابن الخياط البصري: ١٦٠.

٥. تاريخ الطبري ٥: ٥٠٣.

قال المسعودي: ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: اعهد إلى من ترى من أهل بيتك! فقال: لا والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقصد وزرها وتتعجلون أنتم حلاوتها وأتعجل مرارتها؟! اللهم إني بريء منها ومتخل عنها، اللهم إني لا أجد نفراً كأهل الشورى فأجعلها إليهم، ينصبون لها من يرونها أهلاً لها.

وكانت أمه ابنة خال أبيه: أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس واقفة تسمعه فقالت له: ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام! فقال لها: يا أمه! وليتني كنت خرقة حيض ولم أتقصد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء أنا بوزرها ومنعها عن أهلها؟! كلاً إني لبريء منها!

إلا أن ابن قتيبة قال: جمع الناس فخرج إليهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: أيها الناس! إني نظرت لكم فيما صار إلي من أمركم وتقلدته من ولايتكم، فوجدت فيما بيني وبين ربي أنه لا يسعني أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني وأحقهم بذلك وأقوى على ما تقلدته، فاختاروا مني إحدى خصلتين:

إما أن أخرج منها واستخلف عليكم من أراه رضا لكم ومقنعا، ولكم علي الله أن لا آلوكم نصحاً في الدين والدنيا.

وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها.

قال: فخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم فقالوا له: ننظر في ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله، فأمهلنا. فقال لهم: لكم ذلك وعجلوا علي.

فلم يلبثوا بعدها إلا أياماً حتى طعن، فدخلوا عليه فقالوا: استخلف على الناس من تراه لهم رضا. فقال لهم: عند الموت تريدون ذلك؟! لا والله لا أتزوّدّها، ما سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها؟! فهلك ولم يستخلف أحداً^٢.

١. مروج الذهب ٣: ٧٣.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٣.

هذا، وانفرد اليعقوبي بخطبة أخرى تختلف كلّ الاختلاف عمّا سلف، قال:
خطب فقال:

أمّا بعد حمد الله والثناء عليه، أيّها الناس! فإنّا قد بلينا بكم وبليتم بنا، فما
نجهل كراحتكم لنا وطعنكم علينا! ألا وإنّ جدّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر
من كان أولى به منه في القرابة برسول الله وأحقّ في الإسلام، سابق المسلمين
وأول المؤمنين وابن عمّ رسول ربّ العالمين وأبا بقيّة خاتم المرسلين! ركب
منكم ما تعلمون وركبتم ما لا تنكرون، حتّى أتته منيته وصار رهناً بعمله.

ثمّ قلّد أبي، وكان غير خليق للخير! فركب هواه! واستحسن خطاه، وعظم
رجاؤه، فأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته وانقطعت مدّته، وصار في
حفرتة رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه! وإنّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح
منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمه، وحرّق الكعبة!

فما أنا المتقلّد أموركم ولا المتحمّل تبعاتكم! فشأنكم أمركم! فوالله لئن
كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً، وإن تكن شراً فحسب آل أبي سفيان ما
أصابوا منها! وكان مروان حاضراً فناداه: سنّها فينا عمريّة!

فقال: ما كنت أتقلّدكم حيّاً وميتاً، ومتى صار يزيد بن معاوية مثل عمر؟!
ومن لي برجال مثل رجال عمر؟!

أجل، هذا ما قاله اليعقوبي.

وقريب منه بل أقرب إلى التصديق ما رواه الورّام بن أبي فرّاس المالكي
الحلّي (٦٠٥ هـ) في مجموعته: أنّه لمّا نزع معاوية بن يزيد نفسه من الخلافة قام
خطيباً فقال:

أيها الناس! ما أنا الراغب في التأمر عليكم، ولا بالآمن من كرهتكم، بل بلينا بكم وبليتم بنا، ألا إن جدّي معاوية نازع الأمر من كان أولى بالأمر منه في قدمه وسابقته: عليّ بن أبي طالب، فركب جدّي منه ما تعلمون، وركبتم معه ما لا تجهلون، حتّى صار رهين عمله وضجيع حفرته (تجاوز الله عنه).

ثمّ صار الأمر إلى أبي، ولقد كان خليفاً ألا يركب سننه، إذ كان غير خليق بالخلافة، فركب ردعه واستحسن خطاه، فقلّت مدّته وانقطعت آثاره وخمدت ناره! ولقد أنسانا الحزن به الحزن عليه! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثمّ أخفت يترحم على أبيه! ثمّ قال:

وصرت أنا الثالث من القوم، الزاهد في ما لديّ أكثر من الراغب، وما كنت لأتحمل آثامكم، شأنكم وأمركم فخذوه، ومن شئتم ولايته فولّوه! فقام إليه مروان بن الحكم وقال له: يا أبا ليلى! أفسنة عمر سيئة؟! فقال له: يا مروان! أتخذعني عن ديني! ائتنى برجال كرجال عمر أجعلها شورى.

ثمّ قال: والله إن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظاً، ولئن كانت شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها. ثمّ نزل، فلمّا دخل ... قالت له أمّه: ليتك كنت حيضة! فقال: وأنا وددت ذلك ولم أعلم أن لله ناراً يعذب بها من عصاه وأخذ غير حقّه! وهذا كما ترى أنسب به وأقرب إلى تصديق صدوره من مثله في تلك البيئة والجوّ والمحيط.

قال المسعودي: ثمّ قبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وتقدّم للصلاة عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان على أمل أن يكون له الأمر بعده، ولكنه لمّا كبر الثانية طعن أيضاً فسقط قتيلاً!

وتقدّم أخوه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان فصلّى عليه فقالوا له: نبايعك؟! قال: على ألا ابشر قتالاً ولا احارب! فأبوا عليه، فلحق بابن الزبير^١.

وقال ابن قتيبة: فلمّا دفن معاوية بن يزيد وسوّي عليه التراب، وبنو أميّة حول قبره، قال مروان: أما والله يا بني أميّة إنّهُ لأبو ليلى، والملك بعد أبي ليلى لمن غلباً^٢ وإنّما كنّاه بأبي ليلى؛ لأنّ العرب كانت تكنّي به المستضعف، قال الشاعر:

إنّي أرى فتنة هاجت مرّاجلها والمُلك بعد أبي ليلى لمن غلباً^٣

وكان مؤدّبهُ عمر بن نُعيم العنسي المقصوص، فأخذه المروانيون وقالوا له: أنت علّمت معاوية الصغير ذلك! ولقّنته إياه وصدّدتَه عن الخلافة، وزيّنت له حبّ عليّ بن أبي طالب وأولاده، وحملتَه على ما وسمتُنا به من الظلم، وحَسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال!.

فقال المقصوص: والله ما فعلت؛ ولكنّه كان مطبوعاً مجبولاً على حبّ عليّ. فدفنوه حيّاً! ^٤.

١. مروج الذهب ٣: ٧٣.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٣.

٣. مروج الذهب ٢: ٧٢.

٤. حياة الحيوان ١: ٨٩، مادة أوز. والبدء والتاريخ ٦: ١٧، سمط النجوم ٣: ١٠٢، تاريخ مختصر الدول: ١١١، جواهر المطالب ٢: ٢٦١.

أحوال البلاد بعد يزيد

وما دعا إليه مروان من الشورى هو ما كان يدعو إليه ابن الزبير حتى بعد موت يزيد إلى ثلاثة أشهر^١ ومال إليه من دمشق الضحّاك بن قيس الفهري ومعه القيسيون، فاستخلفه ابن الزبير على الشام^٢ وكان النعمان بن بشير الأنصاري في حمص ومال إليه، وبقنسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي، وبفلسطين ناتل بن قيس الجذامي، وبمصر عبد الرحمان بن جحدم الفهري. وبقي بالأردن حسان بن بجدل الكلبي^٣ وقيا لمصاهرته لمعاوية والأمويين.

وفي البصرة وإن كان الأحنف التميمي تمّ على الرضا بابن زياد حتى يروا اجتماع الناس، لكنّ بني الرياح بناحية المربد من بني تميم البصرة وعليهم سلمة بن ذؤيب الرياحي ارتاح للدعوة إلى ابن الزبير في شهر جمادى الآخرة، فتنحّى ابن زياد من دار الإمارة إلى دار مسعود بن عمرو الأزدي وأقام عنده أربعين يوماً أو شهرين أو ثلاثة أشهر، وقام الأحنف التميمي ببني تميم فحمى دار ابن زياد، وبعث إلى بيت المال والديوان والسجن فحصنها، واجتمع أهل البصرة ليؤمّروا عليهم أميرا، فاجتمعوا على عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب، وأمّه بنت أبي سفيان بن حرب ... فأقرّه ابن الزبير أربعين يوماً، ثمّ كتب إلى أنس بن مالك الأنصاري أن يكون لهم إمام الصلاة، لشهر رمضان سنة (٦٤ هـ) ولحق ابن زياد بالشام^٤.

١. تاريخ خليفة: ١٦٠.

٢. الإمامة والسياسة ٢: ١٥.

٣. تاريخ يعقوبي ٢: ٢٥٥.

٤. تاريخ خليفة: ١٦٠ - ١٦١.

إعلان البيعة لابن الزبير، ولمروان:

مرّ الخبر أنّ ابن الزبير كان يدعو إلى أن يعود الأمر شورى بين الأمّة، حتّى بعد موت يزيد إلى أكثر من ثلاثة أشهر، بل إلى سبع أو تسع خلون من رجب حيث بويع له بالخلافة^١، وكان واليه على الشام بدمشق الضحّاك بن قيس في ستّين ألفاً^٢ من القيسيّة.

وقام روح بن زنباع الجذامي في رؤوس قريش وأميّة وأشرافهم يقول لهم: كان الملك فينا أهل الشام، أفينتقل ذلك إلى الحجاز؟ لا نرضى بذلك! فتوافقوا على ثاني أبناء يزيد وهو خالد وهو حدث السنّ، فجاءوا إليه وقالوا له أن ينتصب للأمر، فتردّد وقال: سأنظر في ذلك!

فتوافقوا ثانية على عمرو بن سعيد الأشدق وجاءوا إليه وقالوا له: يا أبا أميّة! انتصب للأمر! فوعدهم القبول، ولكنهم انصرفوا فأعرضوا عنه!

فلما أصبح واجتمع الناس خرج إليهم عبد العزيز بن مروان وقام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم؛ إنّه لكبير قريش وشيخها! وأفرطها عقلاً وكمالاً! وديناً وفضلاً! والذي نفسي بيده لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر! فصدّقه الجذاميون، وكان خالد بن يزيد حاضراً فقال: أمر قضي بليل^٣!

وعقبّ اليعقوبي عقوبة ابن الزبير لمروان وبني أميّة بإخراجهم ثانية من المدينة إلى ما بعد عودة جنود ابن نمير، قال: إنّ ابن الزبير أخذ مروان بالخروج من المدينة، وكان ابنه عبد الملك مصاباً بالجدري، فقال له مروان: كيف

١. تاريخ خليفة: ١٦٠.

٢. المصدر السابق: ١٦١.

٣. الإمامة والسياسة ٢: ١٥-١٦.

اخرجك وأنت على هذا الحال؟ فقال له: لفني في القطن! فخرجوا، ثم علم ابن الزبير بالخطأ فوجه يردّهم ففاتوه إلى دمشق وقد مات معاوية.

واجتمع الناس بالجابية بجانب دمشق يتناظرون في الأمر ... وكان روح بن زنباع الجذامي يميل إلى مروان، فقام خطيباً فقال: يا أهل الشام! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش والطالب بدم عثمان! والمقاتل لعلي بن أبي طالب يوم الجمل ويوم صفين! فبايعوا الكبير واستنابوا للصغير، ثم لعمر بن سعيد! فتبايعوا كذلك. وإنما اجتمعوا في الجابية (بين دمشق وطبرية) لأن الضحّاك بن قيس كان قد تغلب على دمشق ومعه أهلها وجماعتهم^١.

وقال خليفة: كان أهل الشام قد بايعوا ابن الزبير ما خلا أهل الجابية ومن كان من بني أمية ومواليهم ومنهم ابن زياد، فهؤلاء بايعوا بالجابية مروان ابن الحكم ومن بعده لخالد بن يزيد، وذلك للنصف من ذي القعدة^٢.

وقال اليعقوبي: فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان في ناحيتهم وتناظروا أي بلد يقصدون، واتفقوا أن يقصدوا دمشق. واستمدّ الضحّاك الفهري بدمشق فأمدّه النعمان ابن بشير الأنصاري من حمص بشرحيل بن ذي الكلاع في جند حمص، وأمدّه زفر ابن الحارث الكلابي من قنّسرين والعواصم بقيس بن طريف الهلالي في جند العواصم، وتلاقوا في مرج راهط^٣.

ثم أتوا إلى مروان بن الحكم فأستأذنوا عليه ودخلوا إليه وقالوا له: يا أبا عبد الملك! انتصب للملك! فأبدي القبول، فقال له روح بن زنباع: إنّ معي أربعمائة رجل من جذام، وسأمرهم أن يبادروا غدا إلى المسجد، فيقوم ابنك عبد العزيز فيخطبهم ويدعوهم إليك، فيصدّقه الجذاميون، فيظنّ الناس أنّ أمرهم واحد.

١. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٥-٢٥٦. وانظر التنبيه والإشراف: ٢٦٦ و٢٦٧.

٢. تاريخ خليفة: ١٦١.

٣. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٦، ومرج راهط: موضع من غوطة دمشق في شرقيها بعد مرج عذراء مقتل ومدفن حجر بن عدي الكندي وأصحابه الشهداء، كما في المعجم.

حوادث السنة الخامسة والستين وثورة التوابين

استخلاص مروان لعبد الملك

ما أن استقر الأمر لمروان - من دون العراقيين ومصر والحجاز - وخرج من السنة (٦٤ هـ) ودخل في سنة (٦٥ هـ) وقد كسر رقبته خالد بن يزيد بزواجه بأمّ خالد، لم يعبأ به حتّى جدّد البيعة لنفسه ولابنه بعده عبد الملك ثمّ ابنه الآخر عبد العزيز^١ غير آبه بعمر بن سعيد الأشدق. ثمّ وجّه ابن زياد إلى العراق في ستّين ألفاً في شهر ربيع الأوّل^٢.

استيلاؤه على فلسطين ومصر

ثمّ أراد استرداد مصر إلى طاعة المروانية من أميّة، وكان لدى خالد بن يزيد سلاح لأبيه يزيد فقال له مروان: أعرنني سلاحاً كان عندك، فأعاره إيّاه، فخرج إلى مصر^٣ من فلسطين، وكان مروان أرسل عليها روح بن زنباع الجذامي فوجد ناتل بن قيس الجذامي قد تغلّب عليه وأخرجه، فحاربه مروان فهرب إلى ابن الزبير^٤.

١. تاريخ خليفة: ١٦٢.

٢. تاريخ خليفة: ١٦٣ وفيه: ربيع الآخر، وينافي ما يأتي.

٣. الإمامة والسياسة ٢: ١٧.

٤. تاريخ يعقوبي ٢: ٢٥٦-٢٥٧.

